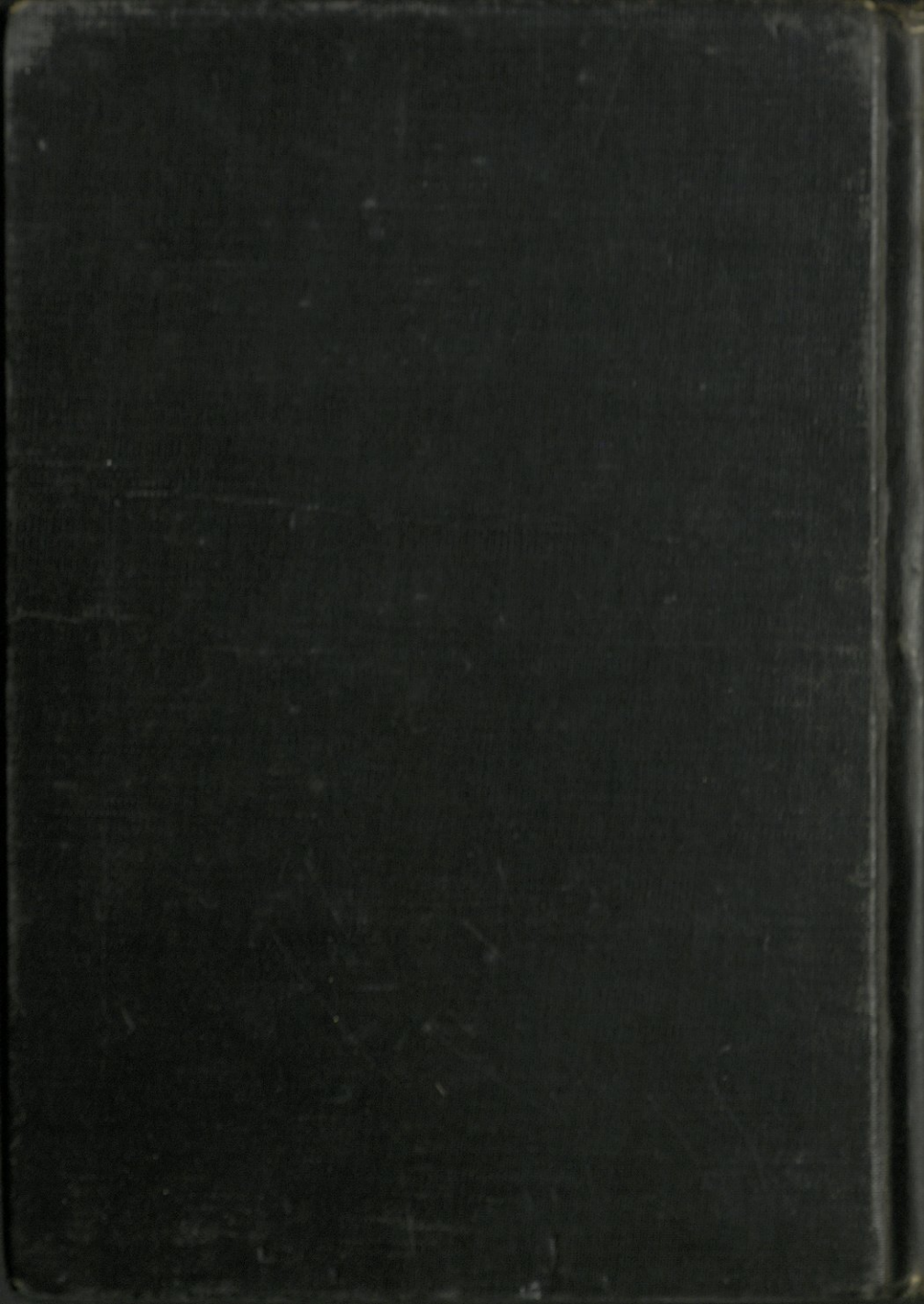
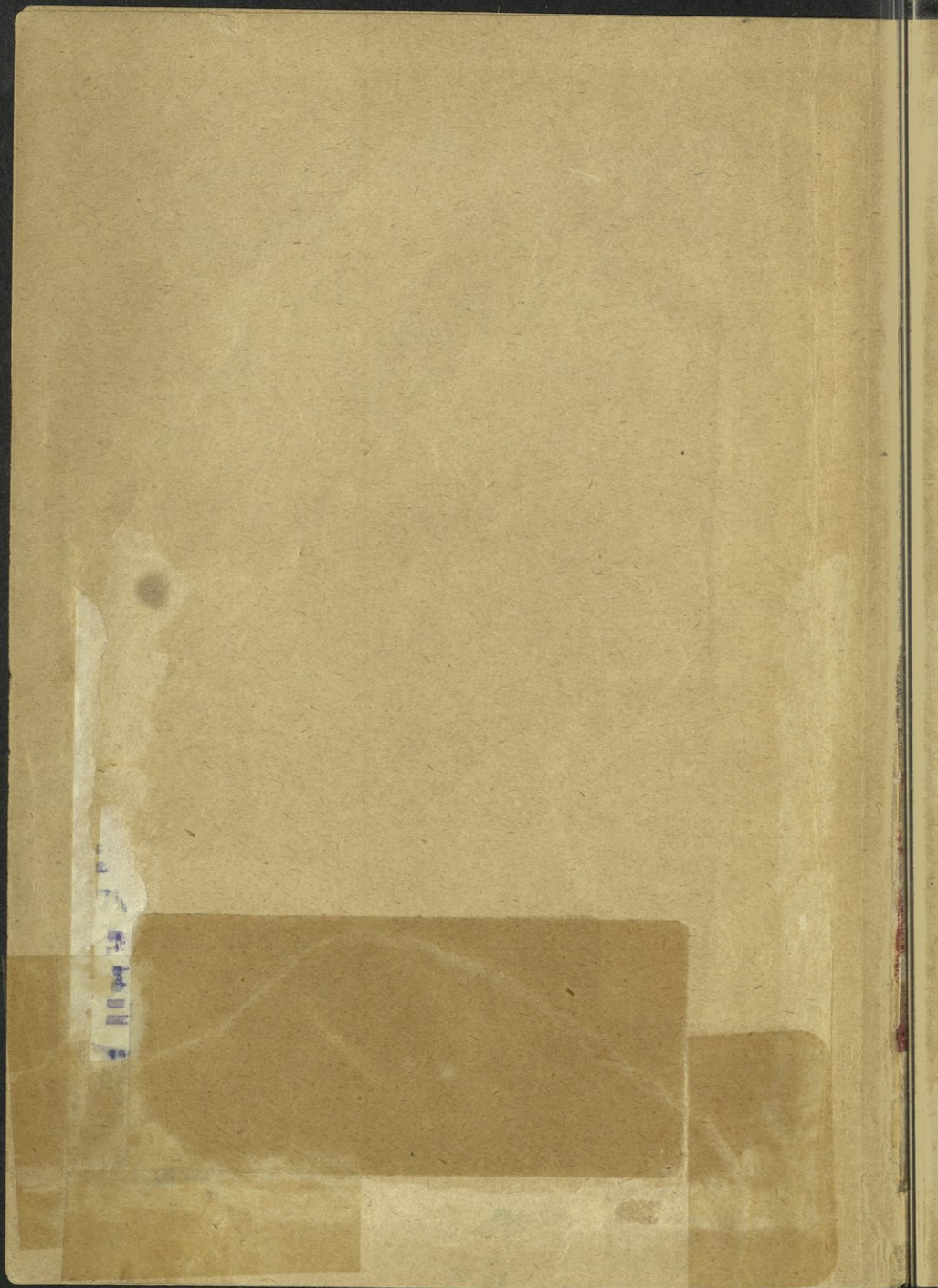




892.7303

H 86 JA



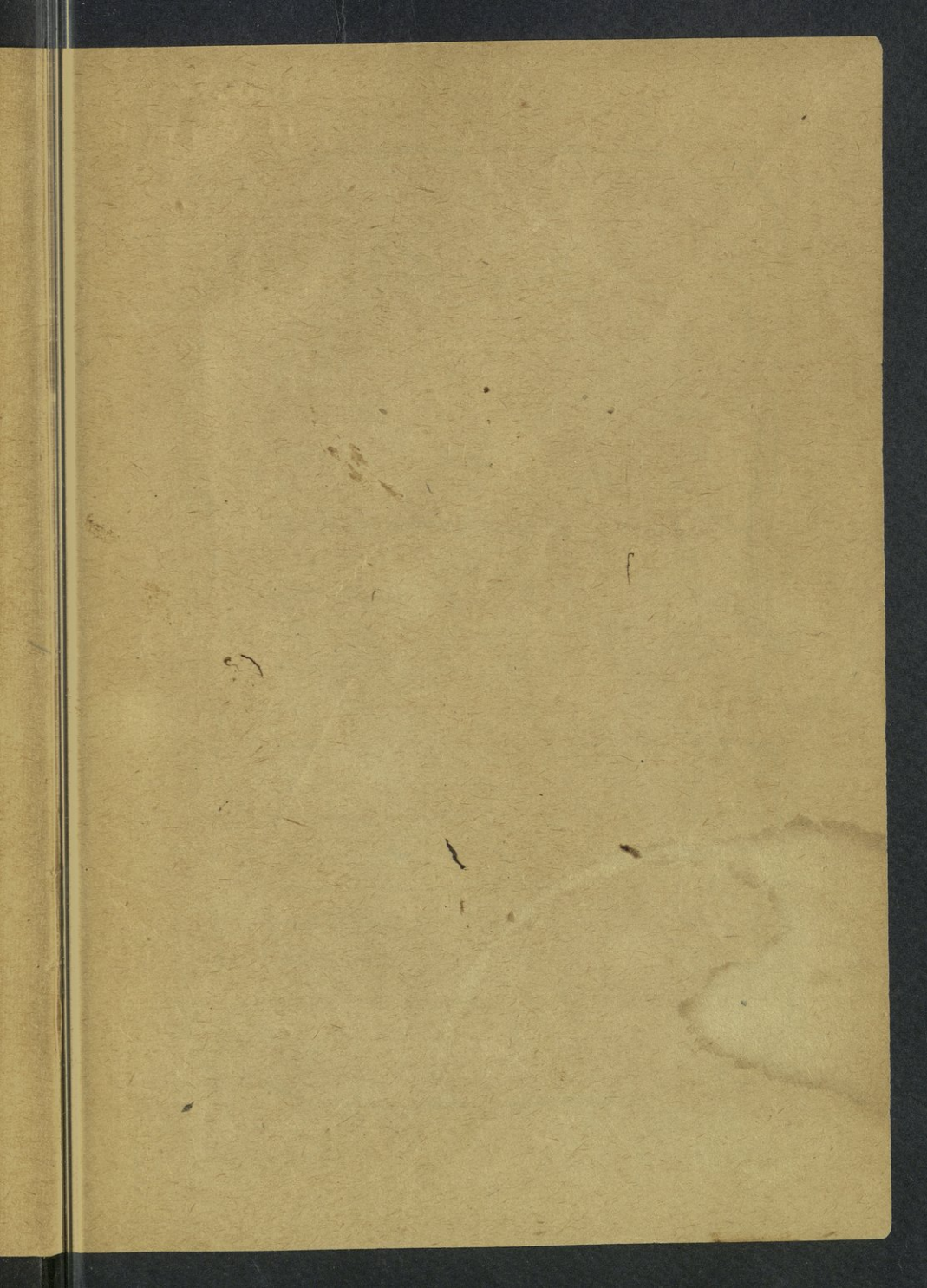


فهرس

الز

الح

٧	الثعبان
١٥	حديث الاوز
٢٢	قسموة
٢٩	ثعلب
٣٦	شياطين البيان
٤٥	الطفل
٥٣	الظلال الهائمة
٥٩	غلظة
٦٧	الشجاع
٧٥	سمير الليل
٨٣	طيف
٩٠	أم خفيف
٩٧	الغانيمات
١٠٥	البرق الخاطف
١١٣	حديث القلوب
١٢٠	أصفاة أحلام
١٢٩	ضمير حائر
٢٧	مدرسة الذباب



التعاليق

كان مشرق الوجه ، باسم الثغر ، خفيف الحركة ، فصيح اللسان لا يكاد يجلس الى أحد أو يجلس اليه أحد ، الا أحس جلسه منه قلبا يضطرب تحمسا للاصلاح ، ونفسا تتوثب الى المثل العليا ، وعقلا لا يرى حوله الا شرا ولا يريد أن يطمئن أو يستقر الا اذا أزيل هذا الشرومحيث آثاره ومعامله ، وقام مقامه هذا الخير المطلق الذي يشمل كل انسان ، وكل شيء ، والذي يسبغ على من يشملهم وما يشملهم جمالا حلوا هادئا ، ولكنه قوى ملح كأنه ضوء الشمس ، لا يمنح الاشياء والاحياء جمالا وبهاء فحسب ولكنه يبعث فيها وفيهم حياة وخصبا وقوة ونشاطا .

وكان تحمسه للاصلاح وطموحه الى الخير ودعاؤه الى العدل يخرج به أحيانا كثيرة عن طوره ، ويتجاوز به الهدوء المألوف الى شيء من العنف لم يكن المصريون يعرفونه في ذلك الوقت ، واذا هو لا يستقر في مكانه مهما يكن هذا المكان في دار أو ناد أو قهوة أو ديوان ، وانما يثب من مجلسه ثم لا يثبت في مقامه

ليحدث الى من حوله كما يتحدث الخطيب ، وانما يذهب ويجيء
ويأتى من الحركات بيديه ما كان يخيف جلساءه على ما قد يكون
حوله من الاشياء ، واذا آية الغضب تظهر في وجهه ، قوة
حاددة فيظلم بعد اشراق ويعبس بعد ابتسام ، ويتطاير من عينيه
المضطربتين شرر مخيف ، وينفجر من فمه صوت هائل يهدير
بالجمل التى تتتابع سراعا فى مثل قصف الموج وعصف الريح
العاتية ، واذا أصحابه يأخذهم شئ من الدهش لا يلبث أن
يستحيل الى وجوم متصل وذهول غريب ، لا يدرون
أهما يصوران الاعجاب والرضى أم هما يصوران الانكار والسخط
أم هما يصوران الحذر والخوف

وكان من الحق أن يحذروا أو يخافوا ، فلم تكن الامور فى ذلك
الوقت تجرى فى مصر كما أخذت تجرى منذ كان فى مصر استقلال
وحرية ودستور وبرلمان ، وانما كانت الامور تسعى متعثرة لا تكاد
تنهض الا بكو ولا تكاد تمضى الا لتقف فقد كان فى مصر احتلال
اجنبى يتغلغل سلطانه اظواهر والخفى فى جميع المرافق العامة
والخاصة ، وكان فى مصر سلطان وطنى شديد الارتباب عظيم
الاحتياط كثير التلون يميل الى المواطنين مرة والى المحتلين مرة
اخرى ، ويحاول احيانا ان يرضى اولئك وهؤلاء ، فلا يظفر الا
بغضب اولئك وهؤلاء

وكان هذا كله يفسد الجو المصرى ويجعله خائفا منها للقوى
لان الناس كانوا موضوع النزاع بين هاتين السلطتين لا يكادون
يرضون احدهما الا وفى نفسهم اشفاق من الاخرى ، وكان لكل
واحدة من هاتين السلطتين عيونها وجواسيسها قد انبثوا فى الاندية
والقهوات والدواوين واندسوا فى المجالس الخاصة . فهم يحصون
على الناس ما يقوون ثم يصورونه كما يحبون ، ثم يرفعونه
الى السلطان الاجنبى او الى السلطان الوطنى . واذا آثار ذلك

واضحة فيما يكون من رضى هذا السلطان او ذاك ومن غضب هذا السلطان أو ذاك. فكان المفكرون ودّو الرأى يعيشون فى قلق متصل كأنما كانوا يسعون على الشوك فليس غريبا أن يثير صاحبنا فى نفوس جلسائه شيئا من الحذر والخوف اذا اخذته ازمته الإصلاحية تلك ، وكانت كثيرا ماتأخذه فيثور ، أو قل يستحيل الى ثورة تريد أن تلتهم كل شيء

وكان صاحبنا حديث عهد بأوربا قد اقام فيها أعواما متصلة وأتم فيها درسه ورأى فيها حياتها الحرة الطامحة التي لا تقيدھا أوضاع النظام الاجتماعى كما كانت تقيد الحياة المصرية فى ذلك الوقت ، ولا تغلھا اغلال السلطان السياسى كما كانت تغل حياة المصريين فى ذلك الوقت بضا ، وانما رأى حياة سمحة طلقة قد عرفت للانسان كرامته ولل فرد حقه فى أن يأتى ريدع من الامر ما يشاء. وفى أن يرى ويقول ما يشاء مادام لا يؤذى غيره يقول أو عمل . وقد شارك فى هذه الحياة واستمتع بما كانت تمتاز به من السماح واليسر. وكان كغيره من المصريين الذين يعيشون فى أوربا لا يكاد يرى شيئا يعرفه او ينكره الاوازن بينه وبين ما يشهده فى الحياة المصرية من قريب او بعيد ، وكانت هذه الموازنة تفضله وتحفظه بالطبع لانها كانت تضطره دائما الى أن يعترف فيما بينه وبين نفسه بأن فى أوربا رفيا ماديا ومعنويا ، وبأن لاهل أوربا حرية فى القول والعمل . وبأن مصر بعيدة كل البعد من هذا الرقى وبأن المصريين قد حرموا هذه الحرية كل الحرمان ، فعاد الى مصر وللغيط فى قلبه نار تتوهج وللغرة على نفسه سلطان لا يكاد يهدىء من ثورته او فورته ، ومن جل ذلك كان صورة ناطقة حية مربة للسخط على كل شيء والضيق بكل شيء والحرص على تغيير كل شيء . وقد أقبل الشباب عليه حين عاد من أوربا معجبين بل مفتونين . ولكنهم لم يلبثوا أن فتروا ثم تفرقوا شيئا فشيئا ،

منهم من رده عنه الخوف ، ومنهم من رده عنه القصور ،
ومنهم من رده عنه السأم . ولا بد من الاعتراف بأن أحداث صاحبنا
على عنفها وتورثها كانت تغمض أحيانا فيعجز أوساط المثقفين
من فهمها ، وكانت تتكرر أحيانا أخرى فيسأم السامعون لها من
كثرة تكرارها . وأكبر الظن أن صاحبنا عاد من أوروبا دون أن
يتعمق من أمرها شيئا وإنما غرته المظاهر فأعجب بها وخدعته
هذه الحضارة الأوروبية ففتن بها ، ورأى في هذا الإعجاب وفي
هذه الفتنة شيئا من الامتياز يتملق كبريائه فأغرق فيهما أغراقا
شديدا . وقد كان ما لم يكن بد من وقوعه فنذر به السلطان
وأشفق منه ونصب له شيئا من كيد خفى حاول أن يثبت له
وينفذ منه ولكنه لم يستطع ثباتا ولا نفوذا فاضطر إلى أن يرجع
أدراجه ويعود إلى أوروبا هذه التي ملكت عليه قلبه ونفسه
وفتنه بمحاسنها فتونا . ولم يكد يستقر في أوروبا حتى دهمته
الحرب الماضية فأقام فيها ماشاء الله أن يقيم والمظاهر أنه انتفع
بهذه الإقامة الثانية انتفاعا عظيما فقد عاد من أوروبا بعد الثورة
المصرية الأخيرة فرأى مالم يكن ينتظر أن يرى . لم ير تفسييرا
في الحضارة المادية ولم ير تطورا ذا بال في الحياة العقلية ولكنه
رأى حرية لم يكن له بها عهد ، حرية لا تحفل بمكر الاحتمال
الاجنبى ولا باحتياط السلطان الوطنى ولا بالعيون
والجواسيس ، ولا بالاحكام العرفية الانجليزية التي ظلت
مفروضة على مصر أعواما بعد انتهاء الحرب ، ولا بهذا الاصطدام
العنيف الذى كان يحدث من حين إلى حين بين الشباب
المصريين والجنود البريطانيين . رأى حرية لا تحفل بشيء من
هذا ، وإنما تمضى أمامها لا تلوى على شيء ولا يرد لها شيء ولا
تزيدها العقبات والمصاعب الاقوة واندفاعا . ورأى المصريين
يقولون في كل شيء لا يتحفظون ولا يتخرجون ، ورأهم ينكرون
من أمرهم أكثر مما كان ينكر هو قبل الحرب فهم لا يرضون

عن الاحتلال الاجنبى ، وهم لا يرضون عن النظام السياسى الوطنى ، وهم لا يطمئنون الى حياتهم الاجتماعية ، وانما يخرجون عليها فى رفق مرة وفى عنف مرة أخرى ، وهم على كل حال يتوثبون الى الاصلاح ، ويطمحون الى المثل العليا ، لا يتحدثون اذا لقي بعضهم بعضا الا فى الحق والخير والعدل والحرية والاستقلال والرقى فى الحياة المادية والعقلية

راى هذا كله فوقف منه موقف الحيرة لم يدر ايرضى عنه ام يسخط عليه . ولو انه جرى مع طبيعته الاولى لرضى كل الرضا عما راى ولضى مع مواطنيه جادا فى الاصلاح طامحا الى الرقى مطالباً بالاستقلال . ولكن اقامته فى اوربا اثناء الحرب واحتماله ماجرته الحرب على الناس من خطوب ، وما القت عليهم من اثقال قد اضطره الى شىء من المرونة وسعة الحيلة وبذل الجهود الملتوية ليتقى الشر ان عرض الشر وليلمس الخير ان سنح الخير ، فعاد من اوربا للمرة الثانية وقد خلقته الحرب خلقا جديدا . كان قبل الحرب يسبق مواطنيه الى الرقى والطموح ، فاصبح بعد الحرب يستأخر عن مواطنيه ولا يكاد يشاركهم فى توثبهم الى ارقى والطموح . ومنذ ذلك الوقت اتخذ لنفسه سيرة وسطا فهو لا يستطيع ان ينكر ماضيه وهو لا يستطيع ان يقاوم هذا الاندفاع المصرى الجارف الى التطور العنيف وهو فى الوقت نفسه لا يحب ان يشارك مواطنيه فيلهج كما يلهجون بالحرية ، ويحرص كما يحرصون على الاستقلال ويطمع كما يطمعون فى مجارة اوربا حيناً ومقاومتها حيناً آخر . وقد زاده حرصاً على هذه السيرة الوسط انه قد تعب فى اوربا وشقى بما نقى فيها من جهد وضيق ، وعاد الى مصر وفى نفسه ميل الى الدعة وحاجة شديدة الى الراحة . ورغبة ملحة فى ان يعوض الوقت الذى اضاعه فى اوربا ، وان يستردك من امره مافات ويحقق لنفسه من المنافع المأجلة والآجلة ما لم يستطع تحقيقه حين كان ثائرا فائرا مطالباً بالاصلاح . وقد راى

المصريين قد انقسموا فيما بينهم قسمين ، فريق يعتدل ، وفريق يتطرف فلم يرد ان يعتدل مع المعتدلين ، فيعد مستأخرا ولا ان يتطرف مع المتطرفين فيتكلف مايتكلفون من الجهد ويحتمل مايحتملون من الغناء . وقد رسم له هذا كله سيرته انوسط فعرف الثورة المصرية ولم ينكرها ، واثنى عليها ولم يشارك فيها ، واتخذ نفسه الاصدقاء والاخلاء من المعتدلين والمتطرفين جميعا ، ولم يقبل في ذلك مراجعة ولا لوما . فان الصداقة ترتفع عن السياسة واعراضها وامراضها والرجل الحر حقا هو الذى لاتلهيه السياسة عن ارضاء حاجة قلبه الى الاخاء الكريم والمودة الصافية والوفاء المتين

وكذلك كنت تراه فى مجالس المعتدلين يسمع منهم ولا يرد عليهم الا قليلا وكنت تراه فى مجالس المتطرفين ، يسمع منهم ولا يجاريهم الا بمقدار ، وكنت تراه فى كل حفل يقيمه المعتدلون وفى كل حفل يقيمه المتطرفون يشهد الحقلين جميعا لان له الاصدقاء والاخلاء بين أولئك وهؤلاء . ولكنه كان ماهرا اشد المهارة فى الاستخفاء حين الجد وحين تبدى الخطوب عن نواجذها لأولئك وهؤلاء . هنالك يلتمس القوم صاحبنا فلا يجدونه ولا يقفون له على أثر . وهنالك يسأل القوم عن صاحبنا أهل المعرفة فلا يحدثهم عن ثابت لاق كما يقول الشاعر القديم حتى اذا هدأت العاصفة ، واستقرت الامور فى نصائها واطمأنت القلوب فى الصدور ، نظر المعتدلون والمتطرفون فاذا صاحبنا بفسدو بينهم ويروح كعهدهم به دائما مشرق الوجه باسم الثغر عذب اللفظ حلوا الحديث

وقد استطاع من الامر مالم يستطعه من المصريين الا الاقلون عددا فارضى المحافظين والمصرفين فى المحافظة بنوع خاص ، وارضى المجددين والفلا فى التجديد بنوع خاص . ثم جعلت الاحوال تحول والامور تتغير وتتابع المحن على مصر ، وكان الطبيعى حين

تمتحن مصر في آمالها وأمانيها وفي حريتها الداخلية والخارجية
أن يتطرف المعتدل ويجدد المحافظ أن كان صادقا في اعتداله
ومحافظته لا يتأثر فيهما بالمنفعة ولا يتقى بهما الخوف

ولكن صاحبنا لم يتطرف وقد تطرف المعتدلون من حوله ،
ولم يجدد وقد جدد المحافظون من حوله ، وإنما ظل كعهده
دائما مشرق الوجه باسم الثغر خفيف الحركة عذب اللفظ حلو
الحديث .

وربما أحس المحافظون المصريون على المحافظة منه ميلا
اليهم ، وحرصا على أن تتصل اسبابه بأسبابهم ، ولكن على
شرط ألا تنقطع أسباب المودة والاخاء بينه وبين المتطرفين ،
من الحقائق المقررة أن صلات الود والاخاء يجب أن ترتفع عن
اختلاف الرأي في السياسة والنظم الاجتماعية . وقد تلقاه
المحافظون حفيين به مستبشرين بقربه منهم واتصاله بهم وأغضى
عنه المتطرفون لانه صاحب وفاء يرتفع بالصدقة عن أغراض
السياسة وأمراضها . ثم أصبحت المحافظة في بعض
الافاق لونا من ألوان الحفاظ والغيرة على مصالح الوطن وكرامته
وأصبح من البدع المحبوب أن يتحدث الناس بأنهم محافظون
وأن يسرفوا في النعنى على المتطرفين فأظهر صاحبنا أنه
محافظ . يذكر مجد الوطن ويحرص على تقاليده وينكر الخروج على
النظام المألوف والسنة الموروثة ، ولكنه في الوقت نفسه لم يقصر
في ذات أصدقائه المتطرفين وإنما جاملهم حين كانت تحسن المجاملة
وواساهم حين كانت تحسن المواساة ، وضمن بذلك رضاهم
عنه وأغضاهم عن غلوه في المحافظة ، وفي هذا كله
مضت أموره على خير ما يجب . شجعه المحافظون حين كان
السلطان يصير اليهم ، وأغضى عنه المتطرفون حين كان السلطان
يستقر فيهم ، وعرف عامة الناس وخاصتهم أنه رجل لا يحب

الاحزاب ولا يشارك في سياستها ، وان كان محافظ الميل قديم
الهوى معتدل السيرة والرأى جميعا

قلت لصاحبى أستطيع ان تحدثنى بما تريد اليه من هذه
القصة التى لاتنتهى . قال صاحبى لا أريد الا الى شئ يسير
جدا وهو ان الذين يريدون العافية وقضاء المأرب وتحقيق
المصالح ، وتجنب الاذى فى انفسهم وامالهم وأعمالهم يحسن
ان يسروا سيرة هذا الرجل البارع . قلت لصاحبى : ليس كل
الناس يقدر على أن يكون ثعبانا وليس من الخير ان تكثر فى مصر
الثعابين

حديث الازور

وأنا اعتذر الى القراء من هذا العنوان الطريف الطريف الذى لم
اكن احب ان اصطنعه على ما فيه من طرافة وظرف لانه اشبه
باحاديث الفكاهة والمزاح ، لا باحاديث الجد المر الذى يجب ان
نحرص عليه حين نأخذ فى شئون التعليم

ولكن صديقا اديبا من اصدقائنا الادباء اراد ان يتحدث
عن نشر التعليم ف ضرب الازور له مثلا ، يذهب فى ذلك مذهب
الفكاهة الساخرة ، وان كانت شئون التعليم فى هذه الايام
لا تحتمل فكاهة ولا سمر

تحدث الصديق الاديب ان صاحبه جحا زعم لقاضى المدينة
انه يستطيع ان يأتى بتسع عشرة أوزة فيحبسهن فى حجرة من
الحجرات ، ثم يدخل عليهن عشرين رجلا فلا يخرج واحد من
هؤلاء الرجال الا ومعه واحدة من هؤلاء الازور . وقد أنكر القاضى
هذا الحديث لما بين هذين العديدين من الاختلاف . ولكن
جحا الح فيه واصر عليه ، فاضطر القاضى ان يستجيب
له . وا قبل جحا بأوزة التسع عشرة وأدخل القاضى عليهن

عشرين رجلا كان بينهم صراع وقراع سالت له الدماء وشاهت له الوجوه ، ثم جعل الرجال يخرجون رجلا في اثر رجل ومع كل واحد منهم أوزته حتى خرج آخرهم ، وليس له شيء ، فلما سأل القاضي جحا عن معجزته ، أبأه بأنه لم يرد إلا عبثا ليبين له وللناس ان الديموقراطية الصحيحة لا تحدث المعجزات ، ولا تخلق المستحيلات

والغزى الذي قصد اليه الصديق الاديب هو ان الذين يريدون ان ينشروا التعليم بغير حساب ، وأن يحشروا الاعداد الضخمة في الاماكن الضيقة ، انما يذهبون مذهب جحا حين اراد ان يقسم التسع عشرة أوزة قسمة سواء على عشرين رجلا فلم يبلغ من ذلك ما أراد

والمثل كما ترى رائع ، بارع وقاصم ، فاصم لا تقوم له حجة ولا يثبت له دليل ، فليست الديموقراطية اذن كلاما يقال ولا هي دعوة تنشر وتذاع ، وانما هي اعمال يقدم عليها اصحابها عن بصيرة ويحققونها عن روية . وليس يكفي ان يقال للناس كلوا ليأكلوا ويأمنوا شر الجوع . وليس يكفي ان يقال للناس تعلموا ليتعلموا ويأمنوا شر الجهل ، وانما ينبغي ان يهيأ الطعام على قدر الطاعمين وان يهيأ العلم على قدر المتعلمين فان لم تفعل كانت دعوتنا الى الطعام والعلم اشبه بعث جحا حين اراد ان يقسم تسع عشرة أوزة على عشرين رجلا قسمة سواء

ومن قبل الصديق الاديب ضربت للتعليم أمثال اخرى تتصل بالطعام فقال قائلون ان الذين ينشرون العلم بغير حساب ويحشرون الاعداد الضخمة في الاماكن الضيقة كالذين يلقون الطعام اقليل الى الجماعة الكثيرة ، فما هي الا ان يلقي هذا الطعام حتى يكون الزحام والخصام والاصطدام ثم يفترق الناس وقد أذى بعضهم بعضا ولم يظفر بالطعام منهم الا قليل .

والغريب ان يقال مثل هذا الكلام في هذه الايام التي تواجه

الحكومات مشكلة التموين ومعضلة الطعام انقليل يلقي الى الجماعات الضخمة من الناس . . ولا يفكر الذين يقولون هذا الكلام ويكتبونه في أن حوادث حياتهم اليومية تنقض ما يقولون نقضا . فان الحكومة انما قامت لتجرى الامور بين الناس بالقسط ، وتقضى بينهم بالحق وتمكن كل واحد منهم من أن يأخذ نصيبه الضئيل من الطعام القليل لا يعدو في ذلك بعضهم على بعض ولا يظلم اقوى منهم في ذلك الضعيف ، وليس المهم أن تنجح الحكومة في ذلك أو تخفق وأن تعدل الحكومة في ذلك أو تجور ، وانما المهم انها انشئت لتجرى أمور الناس بينهم بالقسط ولتطعم عشرين رجلا من تسع عشرة أوزة ، والخطأ الذي انحرف فيه جحا عن الصواب ولم يكن للقاضي أن يجاريه فيه هو انه اراد ان يقسم التسع عشرة أوزة على العشرين قسمة سواء ، ولو انه اصلح الاوز وهياها للطعام لجاز أن يغذى بهن مائة أو مئات من اناس دون أن يقع بين هؤلاء الناس صراع أو قراع ، ولكن جحا لم يكن مصرياً ولا عربياً ، وربما كان له حظ من دعا به ، ولكنها دعا به غير عاقلة . ولو قد كان جحا مصرياً عربياً لعرف أن في مصر أمة تمتاز بخصلتين احدهما القناعة والرضى بالقليل ، والاخرى الايمان بالمعجزات والكرامات وخوارق العادات .

وليس كل مصري حريصاً على أن يأخذ أوزة صحيحة حية يفرح بها في بيته وينظر انيها تذهب وتجيء تبسط جناحيها وتقبضها وترسل في الهواء صوتها الذي يطرد الملائكة ويدعو الشياطين كما يقول اهل الريف . ليس كل مصري حريصاً على أن يظفر بين حين وحين بجزء أوزة عظيم أو ضئيل بل ليس كل مصري حريصاً على أن يذوق طعم الاوز أو يشم ريحه ، وانما المصريون قوم قانعون أكثرهم يرى الاوز ويسمع عنه ، ولكنه لا يلو طعمه ولا يعرف له مذاقا

وهو على ذلك لا ينكر الحياة ولا يضيق بها ولا يسخط عليها
فإن أتيح له قليل من لحم الازواو من مرقه أو من ريحه حمد
الله وأثنى عليه، وشكر له هذه النعمة التي لم يكن ينتظرها ولا
يرجوها

وقد أراد الله بالمصريين خيرا فلم يجعل العلم أوزا، ولم يجعل
الازو علما، وإنما جعل العلم شيئا كهذا الهواء الذي يمتلىء
به الجو ويستطيع الناس جميعا أن يتنفسوا، وجعل العلم شيئا
كهذا الماء الذي يفيض به النيل ويستطيع الناس جميعا أن
يشربوه، وقد يكون الهواء نقيا وقد تكدره رمال الصحراء،
فالناس يتنفسونه على كل حال . . وقد يكون الماء صفوا وقد
تشوبه الجراثيم فالناس يشربونه على كل حال . وقد يكون الطعام
كثيرا وقد يكون قليلا وقد يكون صالحا وقد يكون رديئا، فالناس
يأكلونه على كل حال لانهم لا يريدون أن يموتوا مختنقين ولا
أن يموتوا ظامئين ولا أن يموتوا جائعين، وقد تكون المدرسة
واسعة وقد تكون ضيقة، وقد يكون الاستاذ ممتازا وقد يكون
معتدل الحظ من الامتياز، وقد يكون الكتاب ميسرا وقد يكون
معسرا، ولكن الناس يتعلمون على كل حال لانهم لا يريدون أن
يعيشوا جاهلين، ومكان وزارة المعارف في مصر كمكان وزارة
التموين . فما رأى جحا التركي أن قيل له أن في مصر طعاما
يكفى لتغذية نصف المصريين وأن نصفهم الآخر يموت جوعا

وما رأى جحا التركي أن قيل لوزارة التموين أن في مصر كساء
يكفى لنصف المصريين فيجب أن يكتسى نصفهم وأن يظل نصفهم
الآخر ضاحيا عاريا . وما رأى وزير التموين أن قيل له مثل
هذا الكلام؟ وما رأى البرلمان أن قال له وزير التموين مثل هذا
الكلام . وأى النصفين من المصريين يستطيع أن يأكل
وأن يكتسى فيعيش، وأى النصفين من المصريين يجب أن
يجوع، وأن يعمر فيموت . أما جحا التركي فلن يرى بأسا في أن

ياكل القادر على ان يشتري الطعام ، ويكتسى القادر على ان يشتري الثياب ويموت الذين لا يقدرّون على ان يشتروا طعاما ولا ثيابا . وليس على احد من ذك باس فالله قد قسم الحظوظ بين الناس فجعل بعضهم غنيا يستطيع ان يشتري الغذاء والكساء ، وجعل بعضهم معدما لا يستطيع ان يجد غذاء ولا كساء ولكن وزارة التموين لاتذهب لحسن الحظ هذا المذهب الاثم وانما تفعل ماتستطيع ليجد الفقراء والاغنياء ما يقيم الود ويستتر الجسم وهى تفنذوا الاعداد الضخمة بالقليل من انطعام وتكسو الاعداد الضخمة بالقليل من الثياب توفق احيانا ويخطئها التوفيق احيانا اخرى والفرق بين جحا المصرى وجحا التركى بسيط جدا فجحا المصرى لا يفرق بين العلم والطعام وجحا التركى يرى ان من حق الناس ان يأكلوا ويشربوا ويعيشوا والا باس عليهم من ان يجهلوا ويخضعوا لافات الجهل فيمتاز بعضهم من بعض ويتفوق بعضهم بعضا ، ويصبح بعضهم لبعض عبيدا وتعبا

وقد نشأ المصريون على ألوان من انعقائد يحدثهم بها جحا المصرى مصبحا وممسيا . فهو يحدثهم بان النبى صلى الله عليه وسلم قد اطعم الاعداد الضخمة من اصحابه حتى اشبعهم بالقليل الضئيل من الطعام الذى لم يكن يكفى الا لتغذية الرجلين او الثلاثة ، وهو يحدثهم بان الله قد انزل على عيسى مائدة من السماء كانت عيدا لاولهم وآخرهم ، وهو يحدثهم بان فى الف ليلة وليلة أوزا لا كلاًوز ، ودجاجا لا كالدجاج تؤكل الواحدة منها حتى لا يبقى الا عظمها . قد جرد من كل ما كان عليه من اللحم ثم يجمع هذا العظم فى طبق من الاطباق ويقال له كلام فيتنفض بقدرة الله ويعود كهيأته قبل ان يؤكل أوزا ودجاجا يستطيع ان يجد فيه الجائع شبعاً ولذة . فمصدر هذا كله

ان جحا المصرى يؤمن بالبركة من جهة ويؤمن بالعدل من جهة اخرى ، ويرى من اجل ذلك ان القليل يجب ان يكفى الكثير وان الناس كلهم لآدم وان آدم من تراب وانهم جميعا من اجل ذلك سواء فى الحقوق والواجبات يجب ان يأكلوا ويشربوا ويتنفسوا ويتعلموا لا يمتاز بعضهم من بعض الا بالتقوى والاعمال الصالحات التى هى خير عند ربك ثوابا وخير مردا فانت ترى فرقا بين التعليم الذى يعلمه جحا المصرى للمصريين والتعليم الذى يلقيه اليهم جحا التركى من مدرسته تلك فى جمبولاد . وقد اراد الله ان يفهم المصريون لغة المصريين والا يفهم لغة التركى منهم الا افراد قليلون وهم من اجل ذلك لا يشبهون التعليم بوز جحا التركى ، وانما يشبهونه بهذه المائدة التى انزلها الله من لسماء فكانت عيدا للناس ولهم وآخرهم وبهذا الطعام انقليل الضئيل الذى اشبع منه النبى صلى الله عليه وسلم مئات من اصحابه ثم تركه كاملا موفورا ، وبهذا الاوز الذى تحدثنا عنه الف ليلة ليلة بانه ينفد ليتجدد ، ويفنى ليقبى ويموت ليحيا

وهم يريدون من علمائهم وادبائهم ووزرائهم وشيوخهم ونوابهم وقادة الراى فيهم ان يؤمنوا مثلهم بهذه الايات ، والا يياسوا من روح الله فانه لا يياس من روح الله الا القوم الكافرون . وهم يريدون من علمائهم وادبائهم وقادة الراى فيهم ان يعرضوا عن هذا الهزل الى الجد ، وعن الباطل الى الحق . وان يعصموا المصريين ما وجدوا الى تعليمهم سبيلا فى المدارس الواسعة وفى المدارس الضيقة وفى الهواء الطلق على الكراسى الوثيرة وعلى الكراسى الخشنة وعلى الحصر وعلى الارض العراء ، لانهم يرون الجهل حريقا يلتهم النفوس ويعوب ، ويجب ان يطفأ مهمما تكن الوسائل التى تتخذ لاطفائه

وهم يريدون من علمائهم وأدبائهم وقادة الرأي فيهم أن يقولوا للدولة انفقى وانفقى عن سعة فإن لم تتح لك الميزانية ماتريدينه فأفرضى الضرائب فى غير تردد وفى غير مهل . وعلمى حتى لا يبقى فى مصر جاهل ولا غافل ولا معرض للاستغلال مهما يكن المستغل والاستغلال مهما يكن المستغل ، والتسلط مهما يكن المتسلطون ، وانه لمن المؤلم المؤذى حقا ان يحتاج المصريون الى ان يقولوا هذا للعلماء والادباء وقادة الرأي

وقد سرت على المصريين أيام كانوا يساقون فيها الى المدارس بقوة السلطان ويدفعون انيها دفعا بالاكراه ويفرون بآبنائهم من التعليم . فقد انعكست الاية وتغيرت الايام واصبح الجاهلون يطلبون العلم فيردهم عنه العلماء ، فاذا انحوا فى ذلك سيقى اليهم احاديث الاوز وقصص عليهم قصص جحا وعبثه فى جمبولاد كلا ايها السادة ، يجب ان يخلص العلماء للعلم واول مراتب الاخلاص له ان ينشروه بكل وسيلة وان يذيعوه من كل سبيل والا يكونوا كهذا البخيل انذى يقول فيه بشار :
وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها اوجه سود

قصيدة

في مصر ظاهرة غريبة لست أدري أتوجد في غيرها من البلاد
أم لا توجد ؟ واكبر الظن انها ظاهرة طبيعية في البلاد التي لم
يتم تطورها بعد ، ولم تتحضر قلوب فريق من أبنائها تحضرا
صحيحا ، وانما اتخذت من الحضارة غشاء رقيقا يخفي وراءه
جاهلية جهلاء ، وقسوة قاسية مذكورة . وهذه الظاهرة هي قسوة
الذين لهم باللين عهد حديث ، وغلظة الذين ادركتهم النعمة بعد ان
ذاقوا ألم الشقاء وبلوا مرارة اليأس والحربان . بنشأ أحدهم .
كما تنشأ الكثرة الضخمة من الشعب المصري في أسرة شقية
بائسة أو في أسرة متوسطة متواضعة ، فيتكلف اهله ما
يتكلفون من الجهد ويحتمل ابواها ما يحتملان من المشقة والعناء
ليرفعاه الى حال خير من حالهما ولينزلاه منزلة أرقى من منزلتهما
وفيه هو ما في الكثرة الضخمة من الشعب المصري من هذا
الدكاء الحاد والعقل الخصب والطموح الى الخير والقدرة على
الجهد ، فما يزال الابوان يكدحان ويشقيان وما يزال هو يكد
ويجد ، وما يزال التعاون بين كدح الاسرة وجد الفتى الناشئ

يؤتى ثمره قليلا قليلا ، حتى يبلغ الفتى بعض ما ارادت له الاسرة
أو كل ما ارادت له الاسرة وبعض ما اراد لنفسه أو كل ما اراد
لنفسه ، وإن كانت حاجة من عاش لا تنقضى كما يقول الشاعر
القديم . وإذا صاحبنا فتى موفق موفور قد بلغ من لين الحياة
وخفض العيش ما لم تبلغ أسرته ، فعلم وكانت أسرته جاهلة ونعم
وكانت أسرته بأئسة ، وابتسم وكانت أسرته عابسة ، واستقبل
الحياة في رجاء كثير وأمل واسع ، فجعل لا يرقى الى درجة الاطمع
في أن يرقى الى درجة اعلى منها وجعل لا يظفر بخير الا حرص
على أن يبلغ خيرا أكثر منه ، وأصبحت الحياة بالقياس اليه
ميدان سباق الى التفوق لا ميدان جهاد لكسب القوت

هنالك يتنكر لماضيه القريب وينسى تلك الدموع التي سكبها
الامهات في كثير من مواطن البؤس والشقاء ، وذلك العرق الذي
سكبه في كثير من مواطن الجهد والعمل ، وتلك المواقف
الحرجة التي وقفها الاسرة في كثير من مواطن الازمة والضيق ،
والتي كانت ترده عن المدرسة لان الاسرة لم تكن تملك المصروفات
وكادت تضطره الى الجهل والخمول لان الاسرة لم تكن تجد
ما تنفق على نفسها فضلا عن أن تجد ما تنفق عليه . ولكن الام
نزلت عن اخر ما بقى لها من الحلوى واستغنت عن بعض ما في بيتها ،
من المتاع ، ولكن الاب ضاعف الجهد ووصل الليل بالنهار في
العمل وأراق ماء وجهه عند فلان أو فلان يقترض منه مقدارا
ضئيلا أو ضخما من المال ، واستطاعت الاسرة بفضل هذا
الشقاء المتصل والعذاب الاليم أن تحل الازمة وتخرج من الحرج ،
وتؤدى المصروفات وتقوم له بما يحتاج اليه ليمضي في درسه وادعا
مطمئنا ناعم العين رضى البال . ولعل الاسرة لم تتعرض لهذا
الحرج مرة واحدة ولا مرتين ، وإنما تعرضت له مرات ومرات
حتى اتم الفتى درسه وبلغ ما ارادت له الاسرة وما اراده
هو لنفسه

ينسى هذا كله نسيانا يسيرا سهلا . ينساه بالقياس الى نفسه فيحسب انه قد نشأ في النعمة والرخاء ، وان ليس له بالضنك والضييق عهد . وينساه بالقياس الى أسرته فيحسب انها لم تقدم اليه شيئا ، لم تشق ليسعد ، ولم تكد ليستريح بالنعيم . ثم هو ينساه بالقياس الى الجيل الناشئ فلا يفكر في ان بين هؤلاء الاطفال والصبية الذين يسمون فتيتسم الحياة ، والذين يمرحون فيشيع من حوهم الرضى والغبطة ، مئات ومئات انما يشتقون ابتساماتهم هذه الحلوة من عبوس الاباء والامهات ، وانما يشتقون ضحكهم هذا المرح من حزن الاباء والامهات كما كان هو يشتق ابتسامه ومرحه من عبوس ابويه وحزنهما في العهد القديم

ينسى هذا كله نسيانا ويجهله جهلا وتمحوه الحياة من قلبه محوا قاسيا . فاذا هو يرى الناس كلهم ناعمين كما ينعم ، راضين كما يرضى ، قادرين على الانفاق كما هو يقدر على الانفاق ، ليس عليهم الا ان يريدوا ليظفروا ، وليس عليهم الا ان يضعوا ايديهم في جيوبهم ليجدوا ما يحتاج اليه ابناؤهم من هذه النفقات التي تزداد كلما تقدمت الايام . يرى نفسه موفورا فيحسب الناس كلهم موفورين ويجد نفسه سعيدا فيحسب الناس كلهم سعداء . وهو من هنا قاس اشد القسوة ، عنيف اشد العنف ، ينظر الى الرحمة على انها خور في الطبيعة كما كان يراها وزير عربى قديم وينظر الى العدل على انه قوة في يد الدولة ترفع بها من تشاء الى حيث تشاء وتخفض بها من تشاء الى حيث تشاء .

ثم ينظر الى الحياة على انها جهاد لا ينال خيرها الا بالكد والجد والعناء كما يتصور هو الكد والجد والعناء . وهو على ذلك صورة عابسة لدولة عابسه لاشر فيها ولا رضى ، ولا رفق فيها ولا ابتسام ، انما هي القسوة المنكرة والعنف المسلط على الروس والنفوس

وعلى كل شيء من حوله حتى تستحيل الحياة جحيما او شيئا
يشبه الجحيم .

وانت تستطيع ان تنظر فى حياتنا العامة على اختلاف فروعها
فسترى كبارا يقدسون على صغار لانهم نسوا انفسهم او قل نسوا
ماضيهم ، ولم يذكروا انهم كانوا صغارا وانهم شقوا بهذه القسوة
من كبار الجيل الماضى ، وان الحق عليهم لانفسهم وللناس ان يحوا
هذا الشقاء ويجنبوا الجيل الناشئ ما شقى به الجيل الماضى ، لان
يثاروا لانفسهم من الابرياء ، فكثير من هؤلاء الكبار القساة انما
يصطنعون القسوة متأثرين بشعور عميق خفى هو شعور الحاجة الى
التشفى والانتقام لكثرة ما ذاقوا من الشدة والجهد حين كانوا
صغارا .

وشر من هؤلاء قوم قست عليهم الحياة ورفقت بهم الدولة
فأعانت أسرهم على تربيتهم وتعليمهم ومكنتهم من أن يتموا
الدرس على أحسن وجه ، ويتقبلوا فى المناصب حتى تصير اليهم
الامور ، واذا هم ينسون فى وقت واحد قسوة الحياة عليهم فيقدسون
على الناس ، ورفق الدولة بهم فلا يرفقون بأحد . أخذوا لانفسهم
ما استطاعوا من لين الحياة . وهم يأخذون لانفسهم وسيأخذون
لانفسهم ما يستطيعون من لين الحياة ، ولكنهم لا يعطون شيئا ، لامن
ذات ايديهم ولا مما فى يد الدولة لانهم انما نعموا بالحياة وينعمون
بها من حيث انهم ممتازون قد اشتقوا من عناصر ممتازة ، وهم
ليسوا كغيرهم من الناس ولا ينبغي ان يشبه بهم الناس من
قريب او بعيد . وصدق الله العظيم فى قوله الكريم « ويل
للمطففين » الذين اذا اکتالوا على الناس يستوفون . واذا كالوهم
او وزنوهم يخسرون . الا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم .
يوم يقوم الناس لرب العالمين »

كل هذه الخواطر الحزينة الشاحبة التى تملأ النفس بؤسا

وحزنا ومرارة ، وانما تخطر لى فى هذه الايام حين تنتهى اجازة الصيف ويستقبل الناس العام الدراسى الجديد . من شأن هذه الايام أن تكون أيام ابتهاج حلوا وكتئاب هادى لامرارة فيه . من شأنها ان تكون ايام ابتهاج لان الاطفال والصبيبة والفتيان يستقبلون عامهم الدراسى الجديد الذى سيملاه النشاط الخصب فننمو عقولهم واخلاقهم واجسامهم ، ويخطون الى الرجولة خطوات مباركة ترقبها الاسر سعيدة مبتهجة .

ومن شأن هذه الايام ان تكون أيام اكتئاب هادى لامرارة فيه لان الاطفال والصبيبة والفتيان سيفارقون الاسر الى حيث معاهدهم العلمية فتحزن الاسر شيئا ولكنه حزن باسـم ان صح ان يبتسم الحزن، ويحزن التلاميذ والطلاب شيئا ، ولكنه حزن قصير رقيق لا يلبث ان تمحوه حياة الدرس . ولكن هذه الايام عندنا ليست ايام ابتهاج باسـم واكتئاب هادى ، وانما هى أيام الحزن المـضـ والشقاء الملح والعذاب الاليم والصراع بين القدرة والعجز وبين الامل واليأس وبين القوة والضعف ، وهى الايام التى يجب ان يشقى فيها الاباء والامهات ليجدوا البنائهم ما ينفقون وليؤدوا عنهم اجور التعليم . واجور التعليم فى مصر ليست سهلة ولا يسيرة ، وانما هى اجور ثقيلة عسيرة قد فرضت على اساس ان الامة غنية او ان التعليم حق للاغنياء دون غيرهم من الناس . وأين يجد الاباء ما يحتاج اليه ابناءؤهم من نفقة يعيشون بها فى عاصمة الدولة او فى عواصم الاقاليم : واين يجد الاباء ما يؤدون الى وزارة المعارف او الى الجامعة ليتعلم ابناءؤهم . يجب اذن ان تنزل الامهات عما بقى لهن من حلى وعن بعض مافى بيوتهن من متاع ، ويجب ان يريق الاباء بعض مافى وجوههم من ماء ليقترضوا من هنا وهناك ما يعينهم على تعليم ابناءئهم

ما اروع نظامنا الاجتماعى فى تكدير الحياة ومن حقها ان تصفو ، وفى تنقيص العيش ومن حقه ان يكون حلوا رقيقا

ان الطالب الاوربى ينفق اكثر ايام الطلب لا يكلف اهله شيئا من نفقات التعليم لان الدولة تعلمه بلا اجر ، فاذا اتم تعليمه الثانوى وأراد الاتصال بالجامعة فهو فى بعض البلاد لا يكلف اهله شيئا لان الدولة تعلمه فى الجامعة بغير اجر ، وهو فى بعض البلاد الاخرى لا يكلف اهله شيئا يذكر لان الجامعة تأخذ منه اجرا سوريا : فليعلم المصريون ان مصروفات التعليم فى كليات الآداب والعلوم فى فرنسا مثلا لا تزيد على سبعين قرشا مصريا فى العام أى انها لا تبلغ ما يدفعه الطلاب عندنا رسما للمكتبة والاتحاد . فاما مصروفات التعليم عندنا فيعرفها الآباء الذين يسعون ويعرفها الامهات اللائى ينزلن عما لهن من حلى أو عن بعض مافى بيوتهن من متاع . ويعرفها رجال وزارة المعارف ورجال للجامعتين الذين تعلمت كثرتهم الكثيرة على حساب الدولة بالمجانية فى مصر وفى أوربا لان الدولة كانت محتاجة الى المتعلمين ثم هم الآن يقاومون المجانية ما وجدوا الى مقاومتها سبيلا ويحاولون فى التخلص منها ، يسلكون الى ذلك الطرق الملتوية اذا لم يستطيعوا ان يسلكوا اليها الطرق المستقيمة . يرفعون نفقات الطعام والكتاب ويحسبون انهم يحتفظون بالمجانية

ويحكم ايها الناس ، ومن أين لغير الاغنياء باثمان الطعام والكتاب التى تطلبونها . لا تنظروا الى انفسكم الان ولكن انظروا الى انفسكم حين كنتم صبية واطفالا وفتيانا . واذكروا كيف كانت اسركم تشقى بدفع المصروفات ، وكيف كانت اسركم تسعد ان اتيحت لكم المجانية ، واجتهدوا فى أن تجنبوا أسر هذا الجيل ما احتملت اسركم من شقاء ، واجتهدوا فى ان تتيحوا لاسر هذا الجيل ما اتيح لاسركم من السعادة حين ظفرتم بالمجانية . واحذروا أن تكونوا من الذين قال الله فيهم : « ويل للمطففين الذين اذا اکتالوا على لناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون »

اللهم اشهد انى مازھبت قط الى الجامعة أو الى وزارة
المعارف الا كانت هذه القصة ملء قلبى ، والا ذكرت انى كنت
سعيدا حين تعلمت على حساب الدولة، فمن الحق على ان اتيح
بعض هذه السعادة لأكبر عدد ممكن من شباب مصر ولو
استطعت لاتحتها لهم جميعا

ومن يدرى فما لم نستطعه أمس قد نستطيعه غدا ولا بد
من أن يبلغ الكتاب أجله ولا بد لمصر من أن تظفر بحقها من العدل
فى يوم من الايام

تغلب

لو رأيته قبل عشرين سنة يا سيدتى لما انكرت منظره هذا
الغريب، حين رأيته يقبل متدحرجا كأنه البرمة الهائلة، لم ترتفع في
هجو كثيرا ولكنها اتسعت عن يمين وشمال، وامتدت من خلف
وامام. وهى تسعى مع ذلك خفيفة لا تكاد الارض تحس لها ثقلا لانها
اتخذت من لحم وعظم، ولم تتخذ من حجر وصخر

لو رأيته قبل عشرين سنة يا سيدتى لما انكرت منظره هذا
الغريب حين أقبل فحيا ثم تقدم يسعى حتى اذا بلغ مكانه جلس
وكانه الكتيب المنهال فكان الناظر اليه يسأل نفسه لاول وهلة
أيرى انسانا جالسا أم يرى كومة من الرمل، قد استخفى فيها
شخص ضئيل لا يكاد يظهر منه الا تقاطيع وجهه ضئيلة غائرة
خليقة الا ترى. لولا هذا الصوت الذى يخرج منها ضئلا نحيل،
ولولا هذا الشر الذى يتطاير من عينيْن صغيرتين لا تفتح عنهما
الجفون الا فى بطاء بطيء وثقل ثقيل كأنما تشد بخيط قد ركب
فى قفاه، وقام شخص من ورائه يجذبه متكلفا بين حين وحين

فلم تكن هذه حاله قبل ٢٠ سنة وإنما كان فتى نحيفا ضعيفا

ونحيلا ضئيلا رشيق الحركة كثير الاضطراب لا يعرف السعى الهادئ ولا المشى المطمئن، وانما كان يجرى على الارض أو كان يجرى فوق الارض، كأنه شئ من هذه الحيوانات الصغيرة الخفيفة التى ملئت نشاطا وقوة وحياة واتى تريد أن تطير فى الجو لولا ان الله لم يرزقها جناحين

ولم تكن هذه حاله اذا انتقل من حيز الى حيز فحسب . وانما كانت هذه حاله أيضا اذا استقر فى مكان وأقبل على عمل من الاعمال . فقد كان متحركا دائما مضطربا دائما، لاتكاد العين تلحظه الا رأت شيئا من شخصه يتحرك، فوجهه ملتفت مرة الى يمين ومرة الى شمال . ورأسه يرتفع حيناً أو ينخفض حيناً آخر ويلداه تذهبان وتجيئان، ورجلاه تداعبان الارض مداعبة متصلة ، ولسانه لا يكاد يستقر فى فمه وانما هو متحرك دائما ببعض القول ، ولم يكن شخصه المعنوى أقل حركة واضطرابا من شخصه المادى ، فقد كان عقله مفكرا دائما ، وكان قلبه متوثبا دائما ، وكان انطلاق لسانه فى فمه مصورا دائما لهذا العقل الذى لا يننى فى التفكير ، ولهذا اقلب الذى لا يفتر عن الشعور . وكان على هذا كله ، ولهذا كله، ومع هذا كله لا ادرى، متوقد الذهن حاد الذكاء لا تعرض له مسألة من المسائل الا سبق اثرابه الى تعمقها والنفوذ الى دقائقها واستخراج ما كان يمكن أن يستخرج منها ، وكان على ذلك أو لذلك أو مع ذلك لا ادرى ، ما كرا شديد المكر عابثا غالبا فى العبث، حتى احبه اثرابه اشد الحب وخافوه اعظم الخوف ، احبوه لذكائه وخفته وخافوه لتفوفه ولحيلته هذه الواسعة وعبثه هذا المتصل ودعابته هذه التى لا تنقضى وكانوا يسمونه فيما بينهم الثعلب ، وربما بهرهم مكره وتعاضمتهم حيلته الواسعة فسموه الثعلبان . يرون فى هذه الصيغة خطأ أو صوابا مبائغة فيما يريدون ان يخلعوا عليه من صفات الثعلب من الخفة والرشاقة ومن المكر والدهاء

ولم يكن أترابه من التلاميذ وحدهم هم الذين يعجبون به ويعجبون منه وإنما كان اساتذته كذلك يكبرون ذكاءه ويقدرّون نشاطه ويرضون عن جده في الدرس واجتهاده في التحصيل واسرعه الى الاجابة كلما القى سؤال وتفوقه في الامتحان مهما يكن عسيرا وهم من أجل ذلك كانوا يرعونهم ويتعهدونه بالسؤال عنه والتشجيع له والتتبع لتقدمه في الدرس حتى كأنه كان ابنا لكل واحد منهم . وكان اعجاب رفاقه به ورعاية اساتذته له يشعرا به الرضى عن نفسه والثقة بها ، ويملآن قلبه آملا حلوا في مستقبل باسم سعيد . وكان مع ذلك من أسرة متواضعة أشد التواضع ، ضيقة الحال أشد الضيق ، تجد الجهد كل الجهد في كسب القوت فضلا عما تحتاج اليه من مرافق الحياة . وكان الصبي يرى ذلك ويشقى بآثاره ولكنه لم يكن يحفل به كثيرا لانه كان راضيا عن نفسه وأثقالها ، مطمئنا الى اماله الباسم الحلو ومستقبلة الرضى السعيد . وقد أتم الدرس الابتدائي وهم أهله ان يصرفوه عن التعليم ليوجهوه الى بعض العمل لعله يعينهم على بعض ما يلقونه من البؤس ويشقون به من الضيق ولكن الصبي بكى وأغرق في البكاء حتى رقت له أمه ورثى له أبوه . وتكلفت الأسرة ما تكلفت فجاء الاب في الكسب وخرجت الام عما بقي لها من حلية ، وتوسط بعض اساتذته في اعفائه من اجر التعليم فظفر بالمجانين ، ومرق من التعليم الثانوى كما يمرق السهم من الرمية . لم تعرض له عقبة الاذلها ولا صعوبة الا قهرها ، لم يعرف الرسوب في الامتحان ، ولم يعرف التخلف عن الاقران ، وإنما كان السابق المتفوق دائما حتى اذا انقضت تلك الاعوام الثلاثة التى كان التلاميذ ينفقونها في التعليم الثانوى كان الفتى قد جمع شهادتين من شهادات الحكومة كما كان أبوه يعول لأمه اذا خلا اليها . وكما كانت أمه تقول لصاحبانها اذا تحدثت اليهن ..

وكان أبوه حريصا أشد الحرص على أن يضاعف الجهد والكد ، وكانت أمه شديدة الحرص على أن تلتبس عملا كريما في اسرة كريمه ، ليستطيع الفتى أن يمضى في درسه حتى يظفر بالشهادة الثالثة . وانما هي اعوام تنفق في هذه المدرسته او تلك من المدارس العليا ليصبح الفتى رجلا متفوقا ممتازا يستطيع أن يطمح الى مناصب المتفوقين الممتازين بين رجال الدولة الذين يحلون ويعقدون وينقضون ويبرمون . ولكن الله في خلقه حكمة بالغة لا يعرف كنهها ولا تدرك أسرارها ، فلم يكد يتقدم الصيف في ذلك العام حتى اعتل ابوالفتى اياما ، ثم تقطعت به اسباب الحياة واسباب الامل جميعا ففارق هذه الدار ولم ينعم بما كان يتمنى به من ظفر ابنه بالشهادة الثالثة واشتغاله بخدمة الحكومة في منصب من هذه المناصب الممتازة التي لا يظفر بها الا المتفوقون الممتازون . ولم ير الفتى بدا من أن يتلمس العمل ليحيا ولتحيا أمه ، وفي الشهادة الثانوية مقنع للشرب الذي يريد عملا متوسطا بل في الشهادة الابتدائية مقنع في ذلك الوقت للصبي الذي يريد عملا متواضعا ، وماهى الا ان يسعى الفتى ، ويعينه بعض اساتذته في هذا السعى ، واذا هو يظفر بمنصب متوسط في بعض الدواوين ، وقد ضمن لاهه ولنفسه الغذاء والكساء كما يقال في هذه الايام ، ولكن الفتى حول يحسن مقارعة الدهر لا يسد عليه مسلك من مسالك الحياة الا فتح له مسلك آخر من مسالكها كما يقول الشاعر القديم . والتعليم في ذلك الوقت ميسر اكثر مما هو في هذه الايام لقلة المتعلمين وشدة الحاجة اليهم . فما يمنع صاحبنا أن يختلف الى الديوان وجه النهار والى مدرسة المعلمين آخره ، وقد فعل . وما هى الا اعوام حتى يبشر أمه انه قد نال الشهادة الثالثة . واذا عمله يتغير واجره يرتفع واذا هو لا يقنع لاهه ونفسه بالغذاء والكساء وانما يضيف اليهما شيئا من طبيبات الحياة ، وقد جعل رضى الفتى عن نفسه

يشتد ، وجعلت ثقة الفتى بنفسه تزداد ، وجعل الامل يهدي اليه
ابتسامات فيها شيء من سعة ، وجعل المستقبل يدعوه باشارات
فيها شيء من الحاح . وقد سأل الفتى نفسه ما الذى يمنعه من أن
يختلف الى عمله وجه النهار والى مدرسة الحقوق آخره ،
وما الذى يرغبه عن ذلك وليس له ارب في هذه الحياة الفارغة
التي يحياها اترابه من الشبان اذا تقدم النهار . وقد فعل ،
وما هى الا اعوام حتى يقبل الفتى سعيدا محبورا فينبىء
أمه بأنه قد ظفر بالشهادة الرابعة . والشيخة راضية لان
انها يرقى ويرقى ، ويكسب الشهادات لنفسه تكديسا ،
والشيخة محزونة لان زوجها لا يشاركها في هذا الرضى
ولا يشاطرها هذا النعيم . والفتى مقبل على ايامه ينتهبها
انتهابا وقد زاد رضاه عن نفسه وثقته بها ، وقد زاد ابتسام الامل
له سعة واشتد دعاء المستقبل عليه الحاحا ، وهو يسأل نفسه
لم لا يظفر بشهادة خامسة . وبشر أمه ذات يوم بأنه قد ظفر
بهذه الشهادة الخامسة ولكنه أنبأها في الوقت نفسه بنبا مرق
قلبا تمزيقا واجرى دموعها على خدبها غزارا . فقد عرفت له
الدولة نبوغه وقدرت تفوقه ، ورأت ان الشهادة السادسة
يجب ان تضاف الى الشهادات الخمس وان هذه الشهادة
السادسة لا تطلب في مصر ، وانما هى بعيدة ، بعيدة ، يعبر لها
البحر ، وتطلب من بلاد الانجليز . ولم يكن الفتى أقل من الدولة
اعترافا بنبوغه ولا اقرارا بحقه في الظفر بالشهادة السادسة ،
والعلم يطلب ولو في الصين ، والشهادات تطلب ولو في بلاد
الانجليز . ولا يتقدم الصيف حتى يكون الثعلب قد هيا نفسه
للرحلة البعيدة ، والغياب الطويل وقد غاب ماغاب ، ثم آب ومعه
الشهادة السادسة والشهادة السابعة واذا هو رجل مرموق
موموق ، لا يذكر الا اكبره ذاكره ، ولا يرى الا أشير اليه
بالبنان . هذا فلان ، أترى الى فلان ، انه ذو الشهادات السبع

وقد اكبرته الدولة ، وعرفت له حقه وحق شهاداته هذه الكثيرة التى يمكن أن تبسط على جدار من جدران مكتبه فتكسوه كله بهذا الورق الجميل يملأه الثناء الجميل . وقد رضى الفتى عن نفسه كل الرضى ، ووثق بها كل الثقة ، ولكنه زهد فى الشهادات كل الزهد وأدركه شئ يشبه التخممة ، فاتجه نشاطه اتجاها آخر ملائما كل الملائمة لطبيعة الحياة المصرية فى ذلك الوقت

فقد كانت الثورة المصرية قد غيرت أشياء كثيرة من أمور الناس ، ومن أمور الحكم ، ومن أمور المستقبل الذى يطمع فيه الشباب . نشأ نظام الاحزاب ونشأ الصراع بين هذه الاحزاب . ونشأت الفرص الكثيرة التى ينتهزها الاذكياء ليستفيدوا من صراع الاحزاب . ونظر الثعلب ذات يوم فاذا الحياة المصرية كلها تلقى فى نفسه انه قد خلق للفوز وان الفوز قد خلق له ، لان الحياة المصرية لم تكن فى وقت من الاوقات ملائمة لخفة الثعالب ورشاقتها وذكاؤها ونهمها منها فى هذه الايام . وما ينبغى لمن يريد الفوز فى هذه العواصف العاصفة وفى هذه المصالح المشتبكة والخصومات المتصلة والمتافع المعقدة الا ان يكون فطنا ، وصاحبنا شديد الفطنة ، لبقا ، وصاحبنا عظيم الحظ من اللباقة ، خفيفا ، وصاحبنا خف من التسييم ، ماكرا ، وصاحبنا أمكر من المرأة ، صامتا ، وصاحبنا أشد صمتا من الصخرة الصماء . وقد ينبغى ان يضيف المرء الى هذه الخصال ليلعب ما يجب من الفوز ، خصلة أخرى تشتق من هذه الخصال جميعا ، فيتلطف حتى يشعر الاحزاب جميعا بانها جميعا محتاجة اليه ، وحتى يشعر المرافق العامة جميعا بانها كلها تستطيع أن تنتفع به ، وحتى يشعر الساسة جميعا انه رجل فن لا رجل سياسة . وقد استطاع صاحبنا ان يبلغ من هذه الخصال كلها ما اراد .

فقد كان ثعلباً في المدرسة الابتدائية وكان ثعلباً في المدرسة الثانوية وكان ثعلباً في الدواوين التي اختلف اليها وجه النهار وفي المدارس التي اختلف اليها آخره  وكان ثعلباً في بلاد الانجليز وعاد منها أشد اغراقاً في خصال الثعلب . ومكنته شهاداته السبع من ان يتثعلب في فروع مختلفة من فروع العلم والمعرفة . واذا الاحزاب كلها عنه راضية وبه معجبة واليه محتاجة ولكنه فقد من خصال الثعلب خصلة واحدة هي التي حملتك ياسيدتى على ان تضحكى منه حين رأيته يقبل كأنه البرمة الضخمة وحين رأيته يجلس فينهال كما ينهال الكئيب

ذلك ان الايام احبته حباً شديداً ، فأخذت لا يمر به يوم منها الا خلع عليه قميصاً من الشحم قد فصل على قده تفصيلاً وجعلت هذه الثياب الشحمية تتراكم وتتراكب حتى مدته الى يمين والى شمال ، وزادته بسطة في الجسم من خلف ومن أمام ، وجعلته كما ترين جبلاً يتحرك في خفة ويعمل في ذكاء

قالت السيدة وكانت أديبة أريية ، أرجو ان لا يكون ثعلبك هذا الغليظ من ثعالب المتنبي التي يقول فيها :

نامت نواظير مصر عن ثعالبها فقد بشمنا وما تفنى العناقيد

سَيِّدُ طَيْبِ كَيْيَانِ

صدقنى ياسيدى اولاتصدقنى لن يغنى هذا عن الحق شيئا ،
والحق الواقع ، وهو ان هذه القصة ليست مخترعة ولا مصطنعة
وليس للخيال فيها أثر قليل أو كثير ، وانما هى شئ وقع ،
كما أن من الاشياء الواقعة انى قد خرجت من دارى حين ارتفع
الضحى فسعيت اليك متثاقلا استمتع بهذا الجو الرائق ، وبهذه
الشمس الفاترة ، وبهذا النسيم البارد الرقاق ، وأدير فى نفسى
ما وقع لى من الامر ، واستعرض بعض الصور التى اريد أن اصطنعها
لاقصه عليك . واجيل فى نفسى أيضا ما سيكون بينك وبينى من
أخذ ورد مستنكرا على حديثى وسأحاول اقناعك بأنه صحيح
وسيشهد بيتك وبينى خصام لا بد من أن يثور بيننا كلما حدثك
ببعض الامر . لانك رجل لاؤمن الا بما ترى وتحس . ولا تصدق
من أنباء الناس الا قليلا .

ولست أخفى عليك انى أعذرک ولا الومك فقصتلى لاتخلو
من غرابه ، واية ذلك انى انا نفسى انكرتها اشد الإنكار وكنت
واقفا كل الثقة بأنى رايتها فيما يرى النائم ، وكنت أتحدث الى

نفسى بأنها حلم غريب ، طريف ، وكنت التمس العلة لهذا الحلم
وكنت أجدها فى غير مشقة ، وكنت أستمتع بحلمى واستمتع
بما بذلت فى تعليله من جهد واستمتع كذلك بما سأ تحصل فى
تأويله من عناء . ولكن رايتنى حين تقدم الليل وكاد ينهزم أمام
النهار واقفا امام دارى التمس المفتاح لاديره فيفتح لى الباب
وأنسل الى غرفتى فى هدوء وخفة حتى لا يحس اهلى عودتى
فى اخر الليل ، فلا جد المفتاح ، وقد تعودت الا أخرج مع
الليل الا أخذت معى هذا المفتاح أو فر بذلك على اهلى حسرتهم
وراحتهم ونومهم ، واجنبهم بذلك أن يسهروا منتظرين عودتى
أو أن يهبوا من نومهم حين أعود ليفتحوا لى الباب ولكن المقادير
أرادت امس ان تجرى الامور على غير ما تعودت ان تجرى عليه
فأنسيت المفتاح وما أنسانيه الا الشيطان ، وسترى ان هذا لم
يكن غريبا ، فقد كانت المقادير قد قدرت ان تكون ليلتى هذه
من قسمة الشياطين . والشئ الذى ليس فيه شك هو أنى
التست المفتاح حيث تعودت أن أحفظه فلم أجده فجعلت
أفتش فى جيوبى كلها وما أكثرها فلم أجده وقد ضقت بذلك أشد
الضيق ، حسبت اول الامر انى قد أضعته ثم لم البث ان ذكرت
انى خرجت مسرعا مع بعض الاصدقاء وأعجلنى الحديث
فلم ات هذه الحركة اليسيرة التى انتزع بها المفتاح من مكانه
وأضعه فى الجيب الذى تعودت ان أضعه فيه
فلما تبينت ذلك غشيتنى من الهم ما غشيتنى ووقفت واجما
اول الامر مترددا بعد ذلك . أطرق الباب فأزعج من فى الدار ،
أم اقوم مكانى حتى يسفر الصبح ويهب النوم ، أم أعود
أدراجى فأطوف فى شوارع الحى اتلهى بهذا التطواف عن الانتظار ،
وقد طال على هذا التردد فتحولت عن مكانى ولكنى لم أخرج من
الحديقة وانما جعلت أطوف حول الدار وأردد فى نفسى قول
الشاعر القديم :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم مادرت حيث أدور
ولم أكن أدور لأرى أم جعفر وناما كنت أدور مخافة أن أوقظ
أم جعفر أو أزعجها فيكون شر في هذه الدار التي لم تعرف
الشر الا قليلا

ولست احدثك بما كان حين انجلي الصبح واشرقت الشمس
وفتحت الابواب واندفعت الى غرفتي واسرعت الى مضجعي
والتمت الراحة فلم اظفر منها بشيء ثم نهضت مكدودا مجدودا
واقبلت اسعى اليك ولم اذق للنوم طعما في هذه الليلة الطويلة
القصيره التي امتلات من الأمر بأشده غرابه واعظمه سخفا
ولولا قصة المفتاح هذه ، لما شككت في اني رايت حلما من
هذه الاحلام الكثيرة التي تعبت بنفوس الناس حين يجن عليهم
الليل . ولكنك ترى اني مستيقظ منذ اشرق الصباح
امس . ولعلك تذكر وما اظنك نسيت اننا قد قضينا شطرا من
الليل عند صديقنا فلان نسمر حول أحاديث الجن والشياطين
وما تزعم العرب من انصلة التي تكون بينهم وبين الشعراء والخطباء
والكتاب والذين يتعرضون لالوان البيان . وقد قال قائل
منا ان العرب في جاهليتهم واسلامهم لم يتحدثوا بما يكون
بين الشياطين والخطباء والكتاب من صلوات وانما زعموا ان
الشياطين قد وكلوا بالشعراء خاصة حتى اذا كان ابن شهيد
في الاندلس زعم لنا في قصته المشهورة التوابع والزوابع ان
للخطباء والكتاب شياطين كما ان للشعراء شياطين . وقد قص
علينا في رسالته تلك زيارته وادي الجن وما كان من حوار
بينه وبين خطباء الجن وكتابهم اولئك الذين كانوا يلهمون خطباء
الانس وكتابهم ، وسمى لنا شيطان عبد الحميد الكاتب وشياطين
غيره من اعلام البيان ، وسمى لنا شياطين جماعة من خصومه
ومنافسيه في الفن ، وزعم لنا انه خاصهم فخصهم وناظرهم
فتفوق عليهم . وقد اخذت بحظي من هذا السمر كما اخذتم

بحظوظكم منه فلما تفرقنا بقيت في نفسى هذه الايات التى القاها
زهير بن نمير . ذلك الدليل الجنى لابن شهيد في زيارته
المتصلة لتلك الاندية التى كان يجتمع فيها شياطين البيان
ولعلك تذكر ان زهيرا اتقى ابياته هذه الى صاحبه ابن شهيد
وجعلها آية بينه وبينه . فكلما احتاج ابن شهيد الى صاحبه
انشد هذه الايات فيسرع اليه زهير ويجيبه من الامر الى ما يريد
وقد جعلت اردد هذه الايات في نفسى وانا امضى متباطئا الى
الدار ثم لست ادرى لماذا لم اكتف بادارة هذه الايات فى
نفسى وانما جعلت انشدها فى صوت خافت لا يكاد يسمعه
غيرى .

والى زهير الحب يا عزانة اذا ذكرته الذاكرات اناها
اذا جرت الافواه يوما بذكرها يخيل لى انى اقبل فاها
فاغشى ديار الذاكرين وان نأت اجارع من دارى هوى لهواها

ولكنى لم اكد افرغ من انشاد البيت الثالث حتى احسست
الرعدة تأخذنى اخذا عنيفا كدت اهوى له الى الارض لولا انى
تماسكت ، ولولا ان ذراعا قوية عصمتنى من السقوط . فقد
سمعت صوتا غريبا نحىلا يأخذنى من جميع اقطارى وهو يقول
لبيك لبيك هاند زهير بن نمير خليل شاعرك الاندلسى ابن شهيد فى
الزمان الاول والدهر القديم . ولست اخفى عليك انى قد انكرت
من هذا الامر مثل ما تنكر ولم ترتسم على وجهى هذه لابتسامة
الساخرة التى ترتسم على وجهك الآن ، وانما تقبض وجهى
تقبضا شديدا وجعل العرق لبارد يبل جبهتى ، وهم لسانى
ان يدور فى فمى صائح مستغيثا ولكنى اسمع الصوت النحيل
يسعى الى وكلمة دنا منى زال عنه نحوه وجعل يمتلىء شيئا
فشيئا وجرت فيه نغمات عذبة وهو يقول : لا باس عليك لا ترع
واتل معى قول الله عز وجل « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم

بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » فقد تلا هذه الآية من قبلك جماعة من أمثالك العرب حين روعوا بمثل ما تروع به الآن من لقاء اصدقائهم من الجن .

وقد سمعنى اتلو هذه الآية الكريمة مع صاحبي ثم رأيتنى أثوب الى نفسى او رأيت نفسى تثوب الى واذا قلبى امن كله واذا انا هادىء هدوءا لا أكاد أعرفه من نفسى حين يفجئها مالا تنتظر واذا انا اسعى مع صاحبي كما تعودت ان اسعى معك في غير وحشة ولا تكلف كانما كان بينى وبينه ود قديم قد بعد به العهد وطال عليه الزمان . ويجب ان اعترف لك باتى أحسست في ذلك الوقت ان لى شخصين مختلفين أحدهما يساير صاحبي فيسمع منه ويتحدث اليه والاخر عاكف على نفسه في ناحية من نواحي الضمير يرقب ويسمع ويرى ويحاول التحليل والتعليل ويرغم لى أن ما انا فيه انما هو لون من ألوان الحلم لا عرض من أعراض اليقظة ولكنى شغلت عن هذا الشخص الذى انتبه ناحية من نواحي الضمير بهذا الرفيق الذى جعل يتحدث الى الاعاجيب . فقد كان يقول لى : صدقنى ان هذا العلم الذى اخذه قدماءكم عن اليونان واخذه محدثوكم عن الاوربيين قد افسد عليكم شيئا كثيرا وأشاع في نفوسكم فنا من الكبرياء والغرور حرمكم متاعا لاحد له . فانتم تنكرون ما كان يعرفه قدماءكم من معاشره الجن ومخالفه شياطين الفن فاذا تحدث اليكم ابو العلاء بشيء من ذلك في رسالة الغفران او اذا تحدث اليكم ابن شهيد بشيء من ذلك في رسالة التوابع والزوابع لم تصدقوه ولم تطمئنوا اليه وانما استمتمت به في شيء من السخرية والتكذيب على انه من آثار الخيال وفن من فنون الصنعة وما أبعد الفرق بين من يستمتع بالخيال المخترع ومن يستمتع بالحق الواقع الذى لا شك فيه . وانكم تنكرون المصادفة وتردون كل شيء الى ما تسمونه الأصول والقوانين

فردوا الاشياء الى ماتريدون ولكن اعترف بأن المصادفة وحدها هي التي انطقتك بهذه الابيات ، فاذا انا استجيب لك مبسرا لاجدد معك ذلك العهد القديم الذي كان بيني وبين ابن شهيد شاعر الاندلس وخطيبها وكاتبها . وانت من غير شك حريص كما حرص ابن شهيد على ان تفر من حياة الناس لحظات طوال او قصارا دون ان تقطع الصلة بينك وبينهم وانما تراهم في شياطينهم او ترى شياطينهم وهم يزيتون ماسيملاون به قلوبهم ويحركون به ألسنتهم ويجرون به اقلامهم من الوان القول

وقد زرت ابن شهيد على ظهر جواد اصيل ، اما انت فقد ظهرت لك فجأة لم تدر انجمت لك من الارض ام هبطت عليك من السماء وما اظنك تنكر من ذلك شيئا . فانتم لاتخذون الخيل الان اداة للانتقال وانما تنتقلون في سياراتكم وطياراتكم وقطاراتكم هذه التي تخيلون الى انفسكم انكم قد احدثتم بها المعجزات وابتكرتم بها الاعاجيب ، واظنك توافقني على اننا معشر الجن اقدر منكم على اختراع الطرائف وابتكار الاعاجيب واين تقع طرائفكم واعاجيبكم مما كنا تأتي به من الطرائف والاعاجيب في عهد سليمان عليه السلام . واذا كنتم قد بلغت ما بلغت من المهارة والبراعة في عشرين قرنا فاجري ان نبلغ نحن من المهارة والبراعة في هذا الامد الطويل بالقياس اليكم ، القصير بالقياس اليها مالا يخطر لكم على بال

وما اريد ان اشق عليك ولا ان اكلفك من الامر مالا تحب وانما اريد ان ازور معك ناديا من انديتنا هذه التي يجتمع فيها شياطين البيان وان اظهرك عليهم حين يخلو بعضهم الى بعض وقد فارقوا قرناءهم من كتاب الانس حين تقدم الليل واوى كتاب الانس الى مضاجعهم واقبل شياطينهم الى ناديتهم يجسدون حيناً ويعبثون في اكثر الاحيان . وهممت ان ارد على صاحبي رجوع

حديثه ولكنى أرانى فى قصر فخم ضخم لا ادرى أنقلت أنا اليه أم نقل هو الى ولكنى اجد نفسى فيه دون أن أتكلف لذلك سعيا أو حركة واسمع صاحبى زهيرا يقول متضاحكا: قد يخيل اليك ان هذا النادى فى ضاحية من ضواحي القاهرة كهذه الاندية التى تنبث حول مدينتكم هذه الصغيرة ولكن لاتجزع نفسك فان بينك وبين القاهرة امادا لاتقطعها السيارات ولا الطيارات ولا القطارات ، ولولا أنى رفيق بك وفى لك لاظهرتك على بعض ما بينك وبين القاهرة من أمد . ولكن أخشى ان أروعك ، فأعد معى تلاوة الآية الكريمة « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب » وانا اتلو معه الآية الكريمة واجد الطمأنينة والامن واهم ان اتحدث الى صاحبى ولكنه يتدبرنى بالحديث فيقول :

تعلم ان هذا النادى الذى انت فيه مقصور على شياطين البيان الذين يلوذون بأدبائكم انتم المصريين دون غيرهم من الادباء . فلن ترى فى هذا القصر الا قرينا لكاتب أو شاعر أو خطيب من هؤلاء الذين يملأون الجو فى بلدكم فصاحة وبلاغة وبيان . فأى شيطان من هؤلاء الشياطين تحب ان ترى ولايهم تحب ان تسمع ومع أيهم تحب ان تأخذ فى الحديث ! قلت لا ادرى فانى اعرف كتابنا وشعراءنا وخطباءنا لكثرة ما اقرا واسمع من آثارهم ولو خيرتنى لاقترحت عليك ان تزور معى ناديا من اندية الشياطين الذين يوحون الى جيل آخر من اجيال الادباء . قال زهير سبحانه الله ما زلت بعد غارقا فيما يفرق امثالك فيه من الوهم . انك لاتعرف كتابا ولا شاعرا ولا خطيبا حق المعرفة حتى ترى شيطانه وتسمع منه ، لان ما يلقى اليكم من آثار الادباء ليس الا صدى ضئيلا لهذا الصوت الخصب الذى ينفث فى القلوب ويطلق الالسنه ويجرى الاقلام وسترى بعد لحظات انك لاتعرف من أمر ادبائكم الا يسره وانفونه شأننا فامض معى

ولم نكد نخطو خطوات حتى دفعنا الى بهو رجب بعيد الارحاء
تضطرب فيه ظلال غريبة ضئيلة وهى تتصايح وتتصاخب ويكاد
بعضها يمزق بعضا لو ان الظلال يمكن ان تتمزق او يدركها البلى .
وقد انفرد من بين هذه الظلال شخص غريب مرتفع فى السماء
ممتد فى الفضاء كثير حركات الوجه كثير اضطراب الاعضاء
لا يستقر فى مكان ولا يستقر لسانه فى فمه ولا تكاد اعضاؤه
تستقر فى مواضعها من جسمه ، وانما هو حركة متصلة وصياح
لا ينقطع ، وقد حرص على ان لا يدنو من الظلال الاخرى التى
تضطرب فى البهو فتملاه دوياء كدوى النحل ، وانما هو ممتاز
منها دائما لا تكاد تدنو منه الا نأى عنها ولا تكاد تسعى اليه الا ارتد
فى انفة وكبرياء ، وتجافى فى غلظة منكرة

قلت لصاحبى : زهير ماهذه لظلال ؟ قال ضاحكا : هى جماعة
من الشياطين لم تأخذ من الفن بحظ ، ولكنها خدعت عن انفسها
وملاها الغرور فقامت فى هذا البهو مضطربة صاحبة تريد ان
تقتحم على شياطين الفن ناديهم فلا تبلغ من ذلك شيئا لانها ترد
عن نادى الفن ردا عنيفا : وليس اضطرابها هذا الذى ترى ، وليس
عجيجها هذا الذى تسمع الا مظهرها من مظاهر الغيظ وفنا من
فنون الحنق وضربا من ضروب الالحاح فى قرع الابواب لعلها
ان تفتح لها . قلت ، وما هذا الشخص الذى يمتاز من هذه
الظلال فيدبى ان يدنو منها او ان يخلط نفسه بها ولا يؤذن له
مع ذلك فى ان يتجاوز هذا البهو ، فهو يتحسرك وكأنه ساكن ،
ويسعى وكأنه واقف ، وينطق وكأنه صامت ، ويصخب وكأنه
لا يقول شيئا . قال : هذا مسيلمة الشياطين ، اراد ان يكون شيطانا
من شياطين الفن فلم يستطع الا ان يكون ثرثارا مكثارا مهزارا
لاحظ لقلبه من غناء ولا حظ لعقله من علم ولا حظ لضميره من
حكمة ، وانما اتبح له حظ من قدرة على الاضطراب والصخب لم

يتح لغيره من هذه الظلال فهو ينأى عنها ولا يستطيع ان يقطع مابينه وبينها من الاسباب . وليس من شك في انه يمتاز منها بعض الامتياز . ولكن ليس من شك في ان ما يراه لنفسه فنا وما يحاول ان يلقيه الى بعض من يتكثرون عندكم بالقول لا يعدو ان يكون كما يروى من قول مسيلمة الانس : يا ضفدع بنت ضفدع ، نقي ماتنقين اعلاك في الماء واسفلك في الطين ، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين

وهممت ان اتعجل صاحبي زيارة شياطين البيان ولكن ارانى في مكاني ذلك من الطريق الى دارى واسمع صاحبي زهيرا يقول لى في صوته النحيل الذى جعل ينأى عنى شيئا فشيئا . حسبك من ليلتك هذه مارأيت فان راقتك صحبتى ، وشاقتك زيارة شياطين البيان فانشد ما كان ينشد شاعر الاندلس وكاتبها وخطيبها ابن شهيد :

والى زهير الحب ياعز انه اذا ذكرته الذاكرات اتاها
اذا جرت الافواه يوما بذكرها يخيل لى انى أعجل فاها
فأغشى ديار الذاكرين وان نأت أجارع من دارى هوى لهواها

ثم اطرق صاحبي لحظة ورفع الى رأسه وهو يقول في صوت هادى منكسر : صدقنى ياسيدى او لاتصدقنى فان ذلك لا يغنى عن الحق شيئا . والحق الواقع الذى لاشك فيه هو انى قد رأيت وسمعت كل ما أحدثك به الآن

قلت متضاحكا فلا تنشده هذا الشعر مرة أخرى وأنا معك فانى لست في حاجة الى ان ارى شيطانك الاندلسى . قال وهو يضحك ضحكا فيه كثير من السخرية ، لا بأس عليك فقد انسيت ان انبئك بانه زعم لى انه لن يستجيب لانشاد هذا الشعر الا اذا كان هذا الانشاد بعد ان يتقدم الليل

الطفل

لا تقول انه رد الى الطفولة بعد ان قطع مراحل الصبا والشباب والكهولة ولم يكديخطو في مرحلة الشيخوخة الا خطى قصارا ، ولكن قولى ياسيدتى انه لم يخرج قط من طور الطفولة ولم يكديعرف من الاطوار الاخرى التى يعرفها الناس والتى ذكرتها آنفا شيئا ما . فانك ان قلت ذلك كان قولك ادنى الى الحق وكان رأيك ادنى الى الصواب ، واضحكى ماشئت ان تضحكى فلسست اكره لك الجدل والابتهاج ، ولكن الانكار برفع الرأس وهبز الكتفين لا يغير من الحق شيئا ، كما ان الاغراق فى الضحك حتى تنهل الدموع من عينيك انجميلتين على خديك الاسيلين لن يحول الخطأ الى صواب

فانت مخطئة ياسيدتى حين تظنين انه رد الى الطفولة قبل ان يبلغ الستين أو قبل ان يبلغ أرذل العمر ، وصاحبنا بعيد كل البعد عن أرذل العمر . فالذين يقلون فى تقدير سنه يقولون انه قد قارب الستين ، والذين يقتصدون فى ذلك يقولون انه لم يكديتجاوز نصف القرن . أما هو فيخفى سنه ولعله لا يعرف

من امرها شيئا فقليل من الاطفال ، ومن اطفالنا المصريين خاصة ، من يعرفون أسنانهم

وأنا اعلم ان الجيل الجديد قد اخذ يقلد اجيال الغرب فى الاحتفال بأعياد الميلاد . وأخذ الاطفال والصبية يعرفون اسنانهم فى هذه الايام بحكم هذا التقليد ، ولكن صاحبنا ليس من صبية الجيل الجديد ، وانما هو من صبية جيل آخر قد مضى ولم يكن الناس يعرفون فيه الامولد النبى (صلعم) ومواند الاولياء والصالحين ، وميلاد الخديو السابق . فأما عامة الناس فكانوا يجهلون الايام التى ولدوا فيها فضلا عن ان يذكروها ذكرا منظمًا وان يحتفلوا بها فى كل عام . وصاحبنا لم يولد فى القاهرة ولا فى الاسكندرية ولا فى مدينة من هذه المدن التى يشتد فيها الاتصال بالاوربيين ، ويسهل فيها تبادل السنن والعادات . بل هو لم يولد فى مدينة من مدن الاقاليم التى كان يكثر فيها اليونان الذين يشتغلون بالتجارة ويلم بها الموظفون من الانجليز أيام كان الموظفون من الانجليز يطوفون فى المدن ليتعهدوا شئون الادارة والرى والتعليم وانما ولد صاحبنا فى قرية صغيرة بسيرة من قرى الريف ، لا يكاد سكانها يتجاوزون بضع عشرة مئة ولا تكاد هى تمتاز عن أمثالها من قرى الريف المصرى فى أواخر القرن الماضى ، حين كان الحديث عن القاهرة والاسكندرية يملأ النفوس روعة واعجابا كأنه الحديث عن الاساطير ، وحين كانت المدن فى الاقاليم لا تبلغ الاعلى ظهور الابل أو على ظهور الحمير ، وحين كان الناس فى القرى لا يحفلون بتسجيل أبنائهم وبناتهم ، حين يولدون وانما كانوا يتركون ذلك للداية تبلفه أو لاتبلفه الى الحكومة تذكره مرة وتنساه مرة أخرى ، تهتم له مرة وتعرض عنه مرة أخرى . فليس غريبا ان يجهل صاحبنا سنه وليس غريبا ان يجهل الناس معه هذه السن

وأنت تنكرين ان يجتمع على الرجل الواحد هذان الشيطان
المناقضان ، فيكون له جسم الشيخ وتكون له كل الخصائص
الظاهرة التى يمتاز بها الشيوخ ، ثم يكون مع ذلك طفلا لم يمر
بأطوار الصبا والشباب والكهولة . وهذا غريب من غير شك ،
ولكن من الذى قال ان الغرائب لا توجد فى هذه الحياة ، ومن الذى
يستطيع ان ينكر ان من الناس من تنمو أجسامهم نموا مطردا
مألوفاً وتختلف عليها الاطوار المعروفة التى يمر الناس بها فى
حياتهم ولكن نفوسهم تبقى مع ذلك محتفظة بطورها الاول قد
انتهت الى حد من النمو لم تستطع ان تتجاوزه الى غيرهم
الاطوار

وليس من شك فى ان جسم صاحبنا قد نما وتطور كما ترين
فعلية من مظاهر الشيخوخة هذا الشعر الذى وخطه شيب
وهذه التجاعيد التى تظهر فى جبهته ، وهذه التجاعيد الاخرى
التي تمتد حول انفه من يمين ومن شمال ، وهاتان العينان
اللتان لا تنخرج عنهما الجفون الا فى شئ من الجهد ، حتى يخيل
الى من يراه وقد اغمض جفنيه وتحديث أو تحرك انه انسان
يحيا من وراء ستار ، وهاتان الشفتان المنفرجتان اللتان
لا تجتمعان الا فى شئ من العناء ، سواء تكلم صاحبنا أو لبث
صامتا ، وهذا التهدل والترهل فى وجهه الضخم وجسمه الذى
يريد الشحم ان يكسوه فلا يستطيع ، وهذه الحركات
البطيئة المتكسرة والمتعسرة التى تخيل الى من يراها انها تصدر
عن مجموعة عصبية قد شملها لفتور وأخذ يشيع فيها انقضاء
وهذا الصوت المحطم الذى لا يكاد السامع يسمعه حتى يستحضر
أثناء من الزجاج وأثناء من الفخار قد أصابه شق يسير فهو لا يرسل
الصوت اذا مس الا حدتنا بهذا الانحطام ، وهذا التنفس السريع
الذى يتبع بعضه بعضا فى - يراه - كأنه تنفس المتكدر المحجود

والذى يسمعه القريب من مصدره والبعيد عنه كأنه يخرج من أنف قد كثرت فيه الاعشاب فهو لا ينفذ من بينها الا نفوذا عسيرا .

كل هذه مظاهر تدل على ان صاحبنا قد كان طفلا وصبيا وقد كان شابا وكهلا ، وهو الآن شيخ يخضع لما يخضع له الشيوخ من اعراض الضعف والفناء ولكن التحدث اليه والاستماع منه والاخذ معه فى فنون الحوار كل ذلك يصور لنا صبياكسلا لم يتجاوز طور الصبا . فهذا هو الذى قد خيل اليك ياسيدتى انه رد الى الطفولة قبل الاوان ، ومصدر هذا انك لم تعرفيه الا منذ وقت قصير . فأما أنا فقد عرفته منذ أعوام طوال لا أعدها لك لانى لست فى حاجة الى أن تعرفى عددها . ولكنى عرفته حين كنت شابا وحين كان جسمه فى طور الشباب . ثم عرفته حين تقدمت بنا السن وحين اختلفت علينا ظروف الحياة وتجاربها وحين عرضت لنا المشكلات والخطوب ، وأنا أراه الآن فلا انكر منه شيئا . لانى عرفته دائما فى هذه انحال التى ترينها ولانى ضحكت منه دائما مع اترابنا كما تضحكين انت منه الآن ، ولانى قلت فيه دائما لاترابنا وسمعت فيه دائما من اترابنا هذه الجملة : مازال فلان طفلا ويظهر انه سيظل طفلا مهما تقدم به السن ومهما تختلف عليه اطوار الحياة

وربما كان من الحق علينا ان نسجل الواقع فصاحبنا قد نشأ كما نشأ اترابه واختلف الى الكتاب وأوجعت فيه عصا سيدنا احيانا واختلف الى المدارس المدنية وبنى فيها من حياة التلاميذ والطلاب حلوها ومرها فافحق حيننا ونجح احيانا حتى أتم الـدرس العالى كما أتمه كثير من اترابه . ثم عبر البحر الى أوروبا فدرس فى بعض اقطارها اعواما ، ثم عاد الى قريته فائزا مظفرا وسعيدا موفورا وكل هذا من غير شك لا يدل على طفولة ولا

يدل على أن نمو قواه العقلية قد كان محدودا . ولكن الغريب انه الى جانب هذا النمو المطرد قد احتفظ بشيء من خصال الاطفال لم يفارقه في لحظة من لحظات حياته ، ولم يستطع اترا به الذين رافقوه في المدارس المصرية وفي الجامعات الاوربية وفي الحياة العملية بعد ذلك ان يجهلوه أو يتجاهلوه ، فقد كان دائما سريع التأثر جدا بما يسر وسريع التأثر جدا بما يسوء . وكان دائما ينتقل من الرضى الى السخط ومن السخط الى الرضى فى غير تمهل ولا اناة ولا شيء يشبه الروية أو التفكير ، وانما كان أيسر الاشياء يدفعه الى الرضى فاذا هو فرح مرح واذا ضحكه يملأ الجو من حوله ، واذا حركاته العنيفة تضحك منه اصحابه وتلفت اليه غيرهم من الناس . وكان أيسر الاشياء يسخطه فاذا هو مغضب قد خرج عن طوره ، واذا عيناه تقدحان شررا واذا فمه يتفجر عن اشنع اللفظ وأبشعه ، واذا جسمه يدفع الى حركات مضطربة تدعو الى الاشفاق عليه حينما والى الاشفاق منه حينما والى الضحك منه فى كثير الاحيان

وكان حكمه على الاشياء قاصرا أو واهيا منحلا ، لا يعتمد على تفكير صحيح ولا على منطق دقيق ولا على شعور صادق بحقائق الاشياء ، وانما كان له وما زال له منطق خاص لا يكاد الناس يفهمونه عنه ولا يكاد الناس يقبلونه منه ، وانما يسمعونه اذا تكلم فيدهشون ويأخذهم شيء من العجب ، فاذا ردوا عليه منكرين أخرجه انكارهم عن طوره ودفعه الى الغضب النائر والسخط العنيف . فهم بين اثنين اما ان يجاروه فيرضى وتغضب عقولهم ، واما أن يخاصموه فيغضب وترضى عقولهم . وقدهموا بالثانية فوجدوا منه شططا وارهقوه من امرهم عسرا وانتهت طفولته الجامعة الى ان تنتصر على عقولهم الراجحة

واكبر انظن انه قد تعود هذه المجازاة والمداراة منذ طفولته

الاولى فاستجاب ابواه الى كل ماكان يريد وحققا له كل ماكان
يبتغى ، فنشأ واتقيا بأن العالم قد خلق له يدعو فيجاب ، ويأمر
فيطاع وبأن كلمة لا لم تخلق لتسمعها أذناه وانما خلقت
لينطق بها لسانه واكبر الظن ايضا ان هذا الحظ قد رافقه
في دراساته الاولى . وآية ذلك أن سيدنا لم يكذب يغضب عليه
ويؤذيه بعصاه مرة حتى حوله أبواه من الكتاب الى المدارس
النظامية التي لا يضرب فيها التلاميذ . وليس من شك في ان
حب ابيه له ورعايته لهذا المزاج المدلل الرقيق وحرصه على الا
يتعرض لما يكره أو ان يرد عما يريد ، كل ذلك قد رافقه من قريب
أو بعيد فلم تصدمه التجارب القاسية ولم تعلمه المضاعبات ان
ظروف الحياة يجب ان تتسلط على الناس اكثر مما يتسلط
الناس عليها وان تؤثر في الناس اكثر مما يؤثر الناس فيها .
فأدرك الشباب على هذه الحال مؤمنا بنفسه كما يؤمن الطفل
بنفسه مغامرا كما يغامر الطفل ، لا يفكر ولا يقدر ولا يرجو نشيء
وقارا وانما يريد فيقدم على ما يريد . والغريب انه كان يبلغ
كل ما يريد . كان يبلغ كل ما يريد لانه نشأ في أسرة موفورة لها
حظ من ثراء ونصيب من الاتصال بالاغنياء واصحاب الجاه ، فكان
ثراء الأسرة وحبها له وعطفها عليه كل ذلك يذل له المضاعبات
الخاصة ، وكان اتصال الأسرة باصحاب الجاه والغنى يذل له
المضاعبات الاجتماعية التي كان يمكن ان تعترض طريقه في الحياة
وليس أدل على ذلك من انه رأى الناس يكتبون فحاول ان
يكتب ثم اظهر أسرته على ماكتب فأثنت عليه عن علم أو جهل . ثم
اظهر من تتصل بهم أسرته على ماكتب فأثنتوا عليه عن علم أو
جهل . ثم رأى الناس ينشرون فهم ان ينشر كغيره من الناس
ولكن الصحف امتنعت عليه فوجد من ذوى الغنى والنجاه من
يتوسط له عند هذه الصحيفة أو تلك واذا هو يرى اسمه

مطبوعا في مجلة شهرية او اسبوعية ثم في صحيفة سيارة متواضعة ثم في صحيفة سيارة واسعة الانتشار ، واذا هو كاتب كغيره من الكتاب يقرأ نفسه ولا يقرأه الناس بعد ذلك فأما الذين يرونه ويعرفونه فيرضون ويشنون ويشجعون وأما الذين لا يرونه ولا يعرفونه فقد يرضون وقد يسخطون وقد يعرفون وقد يتكرون ولكن صاحبنا لا يعلم من ذلك شيئا ولا يعنيه ان يعلم من ذلك شيئا

والمهم انه لم يكد يتم الدرس حتى كان في رأى نفسه وراى ذوى معرفته كاتباً ممتازا . ولم يكد يعود من اوربا حتى هجم على التانيف كما هجم من قبل على التحرير ، واذا له كتب تذاع وتباع واذا ايسر التناء على فصل يحمره او كتاب ينشره يثير فى نفسه من الرضى ما يخرج به عن طوره ، واذا ايسر النقد لفصل يحمره او كتاب ينشره يثير فى نفسه من السخط ما يخرج به عن طوره . واذا ثقته بنفسه على نحو ما يشق الاطفال بانفسهم تفرضه على قراء الصحف والكتب والمجلات . ثم لانكاد الايام تتقدم حتى تضيف الحياة الى هذه الثقة ثقة اخرى ، واذا الامر يستحيل فى نفسه الى الغرور انذى لاحد له فى طول او عرص أو عمق ان صح ان تكون للغرور بعدا ، فقد تصل صاحبنا بوجوه الناس وسرائهم ، واختلف الى انديتهم ومجالسهم وفرض نفسه عليهم بحكم المودة والقرباة والصلات المختلفة ، فاصبح واحدا منهم يشارك فى ما يشاركون فيه من شئون الحياة العامة والخاصة ويسرف على نفسه وعلى الناس فى هذه المشاركة ، والاىام تبسم له فى اكثر الاحيان ، ولا تعبس له لا قليلا وهى لا تعبس له مع ذلك الا بمقدار

وفى احداث التطور السياسى والاضطراب الخلقى والانتقال الاجتماعى وما كان من تغير القيم واختلاف المقاييس ما يتم القصة

ان كانت في حاجة الى اتمام ويكمل الصورة ان كانت في حاجة الى
اكمال . ولكن الشيء المحقق هو ان الحياة المستقرة الثابتة التي
تجرى الامور فيها على اذلالها تعلم الناس أن ذكاء القلب ، ونفاذ
البصيرة ، ومضاء العزيمة ، والصبر على المكاره ، والاحتمال للخطوب
وأخذ النفس بما يشق عليها ، وتجنبها الطرق الممهدة والامور
الميسرة هي الخصال التي تبلغ بالناس ما يسمون اليه من نجاح
وفوز ولكن الحياة المنتقلة المتطورة التي لا تهدأ الا لتثور ، ولا تسكن
الا لتضطرب تعلم الناس ان الطفولة المتصلة قد ترفع أصحابها
الى مكان الافذاذ

قالت السيدة وكانت اديسة اربية : لقد اخطأ علماء البيان
حين لم يرضوا عن هذا البيت الصادق الجميل من قول الشاعر
القديم :

والعيش خير في ظلا ل النوك ممن عاش كدا

الظلم الخائن

لم يشعر بطرق الباب حين طرق ولا بفتحه حين فتح . ولم يحس مكان الخادم حين أقبلت تحمل الشاي فوضعت على المائدة عن يمينه ، والقت اليه نظرة سريعة فيها شيء من عجب وكادت ترفع كتفها ساخرة ، لولا أملت نفسها واستحضرت ما يجب عليها من توقير سيدها ، فانصرفت متباطئة متثاقلة ، حتى اذا بلغت الباب فتحت في شيء قليل من العنف وأغلقت من ورائها في شيء قليل من العنف أيضا تريد أن تنبه هذا الذي لا يتنبه لشيء لانه مغرق في قراءته . على انها لم تكد تفلق الباب من ورائها حتى أحست شيئا من راحة الضمير فقد أدت الواجب كاملا ، حملت الى سيدها الشاي في أوانه ، وطرقت الباب وخيل اليها انها سمعت الاذن لها بالدخول ، فدخلت وخرجت وادت من الحركات ما يوقظ النائم فكيف ، بتنبيه الغافل أو الذاهل أو المغرق في القراءة ؟ لقد أدت الواجب كاملا فلا عليها أن يتنبه سيدها أو لا يتنبه ، ولا عليها أن يشرب الشاي وهو ساخن كما يجب أو أن يشربه وقد أدركه الفطور أو البرد أو ألا يشربه أصلا . والواقع أن سيدها لم يتنبه لمقدمها ولا لانصرافها ولا للشاي الذي كان يدعو عن يمينه ، ولكنه لم يكن يسمع دعاء ولا يجد الظما كما تعود أن يجده كل يوم في هذا الموعد الذي كان يقدم اليه فيه الشاي

كان مغرقاً في القراءة ثم انتهى من الكتاب الذي كان يقرأ فيه إلى فصل لم يتجاوزه ، وإنما عاد إليه فقرأه مرة ومرة ، ثم كف عن القراءة ولكنه وصل بصره في هذا الفصل الذي أعاد قراءته وظل مطرقاً ممعناً في الاطراق والتفكير ، ثم رفع رأسه وعلى ثغره ابتسامة يسيرة ، ثم نظر أمامه لا يريد أن يرى شيئاً وإنما هو واجم باسم ينظر ولا يرى ويفكر ولا يحقق شيئاً ، ثم تتسع ابتسامته قليلاً ثم ينفرج فمه عن ضحك يريد أن يعلو ، ويملاً الفرفة لولأنه يمسكه ويوشك أن يرده إلى جوفه ردالأنه قد ثاب إلى نفسه فجأة واشفق أن يسمع ضحكه من وراء الباب فتظن به الظنون ، هناك التفت فرأى إبريق الشاي كثيراً مستخدماً لكثرة مادعا إلى نفسه وألح في الدعاء فلم يستجب له أحد لان دعاءه لم يبلغ أحداً . فاقبل صاحبنا على الإبريق يمسكه بيده مساً خفيفاً ثم يمسحه بيده مسحاً متصلاً كأنما يترضاه ويعزّيه . وقد أحس برد هذا الإبريق وعرف أن الشاي الذي يحتويه لم يعد ملائماً لذوقه وألفه ، وهم أن يدق الجرس ويدعو الخادم لتأتيه بشاي جديد ولكنه استحيأ واشفق أن تسخر منه الخادم . إذا رأت شايها لم يمس وان تعيد القصة على امرأته وبنيتها فلا يفرغ منهم ولا من عبثهم إذا كان العشاء . فلم يربداً من أن يشرب الشاي كما هو ، وقد ملأ قدحه وجعل يدير فيه المعلقة يريد أن يذيب هذا السكر الذي يستعصى ولا يريد أن يذوب في هذا السائل البارد . ولأن صاحبنا نسي الشاي مرة أخرى وجعلت يده تدير هذه المعلقة في هذا القدح إدارة آتية غير شاعرة بنفسها لانه عاد إلى التفكير في هذا الفصل الذي كان يردد قراءته آنفاً . ثم عاد إلى التفكير في هذا الفصل ثم لم يطل الوقوف عنده هذه المرة ، وإنما ذهب به الخيال مذاهب مختلفة لم تلبث أن ردت إلى الابتسام ثم إلى الضحك المكظوم

وكان هذا الفصل من كتاب الفصول والغايات لأبي العلاء ويجب أن أروى لك بعضه لتعذر صاحبنا في إطالة الوقوف عنده

والتفكير فيه ثم في اتخاذهم عاجزاً يرتقى فيه الى سماء بعيدة جداً من سموات الخيال: «يقدر ربنا ان يجعل الانسان ينظر بقدمه ، ويسمع الاصوات بيده ، وتكون بئانه مجارى دمه ، ويجد الطعام بأذنه ، ويشم الروائح بمنكبه ، ويمشي الى الغرض على هامته . .» فقد وقفه هذا الكلام الغريب ، اضحكته الصور الظاهرة منه اول الامر ، ثم جعل يستعرض طائفة من اصداقائه وذوى معرفته فيتخيل بعضهم ماشياً على رأسه قد اتخذ الطربوش او العمامة او القلنسوة غطاء لرجليه ، ويتخيل بعضهم باكياً باحدى اصابعه او آكلاً باحدى اذنيه . فتدفعه هذه الصور مطبقة على ما يعرف من اصحابه الى الاغراق فى الضحك ثم تثوب اليه نفسه شيئاً فشيئاً ، ويقدم عقله على الجد قليلاً قليلاً . واذا هو ينظر الى الامر نظرة فلسفية حازمة فيرى ان صاحب هذه الخواطر لم يخطئ . فقد خلق هذا العالم على هذا النحو الذى نعرفه وكان من الجائز ان يخلق على نحو آخر ، بل من الجائز ان يحوله خالقه من هذا النحو الذى خلقه عليه الى نحو آخر يمشی فيه الناس على رءوسهم وينظرون بأقدامهم ويدقون بأذانهم . . الى آخر ما زعم ابو العلاء .

ومادامت قدرة الله شاملة فلن يعجزها شيء . ثم يتلوفى نفسه الآية الكريمة : « واذا قال ابراهيم ربى ارنى كيف تحيى الموتى قال اولم تؤمن . قال بلى ولكن ليطمئن قلبى . قال فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيًا واعلم ان الله عزيز حكيم » قدرة الله اذن شاملة لا يعجزها شيء مهما يكن ، وقد جعل هذا الخاطر يتردد فى نفسه ملحاً عليها الحاحاً شديداً ، وجعل خياله يتصور الوانا من الاشياء لم يرها الناس ولم يتعودوا ان يروها او يتحدثوا عنها ويقول لنفسه ان الله قادر على ان يخلق هذه الاشياء كما اتخيلها واشياء أخرى لا اتخيلها أنا . وانما يتخيلها غيرى من الناس او لاتخطر للناس

على بال . ثم تعرض لخياله صور يقف عندها وقوفا طويلا . فالله قادر على ان يصور ما يمتاز الناس به من الفضائل في شكل فتيات حسان يوسعن اصحابها ثناء وتشجيعا . والله قادر على ان يصور ما يتصف به الناس من الرذائل في شكل فتيات قباح يشبعن من يتصف بهن ذما ولو ما وتقريرا .

ثم يأخذ في استقصاء ما يعرف من اخلاق نفسه فيرى وفاء للاصدقاء وبره بهم واشاره لهم بالمعروف وقد تصور امامه فتاة حسنة تهدي اليه ابتسامات حلوة من بعد ، ثم تدنو منه قليلا قليلا ثم تلحظه لحظا فيه كثير من الحب والعطف والحنان . ثم تدنو منه قليلا قليلا ثم ترسل اليه صوتا عذبا كأنه صوت الملائكة لو انه سمع للملائكة غناء أو حديثا . وهذا الصوت يحمل اليه دعابة حلوة وتحية كريمة . وهو يجد اللذة كل اللذة فيما يرى والمتعة كل المتعة فيما يسمع ولكن هذا الوجه الرائع الجميل الذي يدنو منه شيئا فشيئا لا يلبث ان تغشاه سحابة رقيقة من الكآبة والحزن ، ثم تزداد هذه السحابة كثافة وثقلا وبشاعة كل مادنا منه ذلك الوجه الذي كان يراه رائعا جميلا . وقد خطر له في اثناء ذلك انه لم يكن وفيما كل الوفاء ولا برا كل البر وانه في ذات يوم قد خان العهد وجحد المودة ، وانكر الجميل وعق الصديق ، وانه قد أقدم طائعا أو كاره على بعض الغدر الذي يحاول ان ينساه فلا يستطيع ولا يكاد يفرغ من هذا التفكير حتى يحس شخصا منكرا بشعا قد وقف عن يمينه وجعلت اصابعه الغلاظ السمجة تعبت في شعره ذاهبة جائية وجعل صوته خافتا أشد الخفوت ولكنه منكرا اشنع النكر يقول له :

يقدر ربنا ان يجعل الانسان ينظر بقدميه ويمشى على رأسه ، ويقدر ربنا ان يحيى الموتى ، ويقدر ربنا ان يصور ما في نفوس الناس من الفضائل فتبينت حسنا او يقدر ربنا أن يرد هؤلاء الفتيات الحسان قبيحات بشعات منكرات اللفظ واللحظ والصورة . ويقدر

ربنا ان يخرج هؤلاء الفتيات من القبح الى الحسن ومن البشاعة الى الجمال فالنفس الانسانية واحدة تحسن مرة وتسيء مرات ، والله قادر على أن يصور لها عملها فتاة بسيف عليها الجمال والحسن مرة ويصب عليها القبح والبشاعة مرة اخرى . انظر . ويفتح عينيه فيرى فتاته تلك قد عادت الى جمالها وروعها ، وقد أخذت ابتساماتها تمتلئ سحرا ولحظاتها تمتلئ عفتونا وصوتها يمتلئ موسيقى تخلب الغلوب وتعبث بالالباب وهي تتلو « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم » وقد تنبه صاحبنا مذعورا اشد الذعر وظن أن قد أخذته غفوة فنام ، وعبثت به خواطر ابي العلاء فصور له في غفوته هذا الحلم الغريب وقد أخذ يسترد نفسه النافرة ويدعو خواطره الساردة يستعين على ذلك بهذا القدر من الشئ عن يمينه فهو يرفعه الى فمه فيفرغه في لحظة ثم يرده الى مكانه في شئ من عنف مقصود يريد ان يحدث صوتا يعيد اليه صوابه كله ويطرده من هذه العرفة مارددت فيها الاحلام من تلك الاصوات ، ولكنه ينظر فاذا اشخاص قائمة في اقصى الغرفة منها الحسن الرائع ومنها القبيح البشع وكلها تنطق بصوت يوشك ان يكون صوتا واحدا ، يقدر ربنا ان يجعل الانسان ينظر بقدميه ويمشي على راسه .

ويقدر ربنا ان يحيى الموتى ويميت الاحياء ويقدر ربنا ان يصور الفضائل والرزائل فتيات حسنا أو قباحا ، ويقدر ربنا ان يملأ الارض بهؤلاء الفتيات تصور كل واحدة منهن ما يحدث الناس من اعمال فيها الخير والشر وفيها العرف والنكر ، ويقدر ربنا ان يخفى هذه الظلال عن اعين الناس ما شغلهم الحياء ، وان يظهر هذه الظلال لاعين الناس اذا خلوا الى انفسهم وحاسبوها حسابا عسيرا او يسيرا

وقد امتلأ قلب صاحبنا رعا . وهم ان ينهض بنفسه من هذه الغرفة المشؤومة الموبوءة وليجد عند أهله وبنيه اسب من عده

الوحشة ، ولكنه لا يجد قوة على النهوض كأنما اتصل بكرسیه اتصالا وكان كرسیه قد سمر في الأرض وإذا صيحه هائلة تملأ الغرفة ويفتح لها الباب وتدخل منه امراته مروعة تبسالة : ماخطبك ؟ فيجيب في صوت غريب يمتزج فيه الخوف بالهدوء والضحك بالخجل : ما ادرى لعل غفوت فاخذنى ما يشبه الكابوس ولكن صوتا خافتا جدا يسمعه هو ولا تسمعه امراته وهذا الصوت يهمس في اذنه ، كلا لم تغف ولم تروعك الاحلام والكابوس وانما رايت الظلال الهائمة ولن تامن منذ اليوم ان تراها

قلت لمحدثي وكان طبيبا بالاعصاب : اتريد ان تقول ان من الخير ان يحسن الناس اختيار ما يقرأون من الكتب ، فان القراءة التي يمضى فيها اصحابها على غير اختيار سابق لما يلائم اعصابهم وامزجتهم قد تنهى بهم الى شر عظيم . قال محدثي هيهات وكيف السبيل الى تنظيم القراءة للرجال العاقلين وكيف السبيل الى ان يعرف الناس ما يلائمهم وما لا يلائمهم مما يقرأون ؟ هيهات لم ارد الى هذا ولا يمكن ان اريد انما احببت ان ابين لك ان قلب الانسان غريب يقسو أحيانا فاذا هو كالحجارة أو أشد قسوة ويلين أحيانا فاذا هو كهذه الأرض الرخوة التي امتلأت ماء لا تكاد تمس حتى تنفجر منها العيون والينابيع وقلب صاحبنا هذا قد قسا فكان كالحجارة أو أشد قسوة ، فأتى ما أتى من الشرولان فكان كهذه الأرض التي امتلأت ماء ، مسها أبو الغلاء بخاطره هذا الغريب فتفجر منها هذا ينبوع الذي نستطيع ان نسميه ينبوع الندم

وطرق محدثي الطبيب ساعة ثم رفع رأسه الى ضاحكا وهو يقول : نعم ان قلب الانسان لغريب انذكر ما قال فيه جوته انه كير جدا لا يملأه شيء وهش جدا يحطمه ايسر شيء

غليظ

كان محمد بن عبد الملك الزيات قاسى القلب غليظ الكبد جافى الطبع بليد المزاج . وكان على هذا كله اديا مرهف الحس نافذ البصرة رقيق الشعور ، صافى الذوق مترف العقل ممتازا فيما يكتب من نشر وفيما يقرض من شعر . وكانت السياسة ، والسياسة وحدها ، هى التى اتاحت لهذين الشخصين المتناقضين ان يعيشا فى جسم واحد وان يتسميا باسم واحد ، وان يصدر عنهما مع ذلك من الاعمال والاقوال ما ليس الى التوفيق بينه سبيل

فقد كان محمد بن عبد الملك الزيات اقسى الناس فى القول والعمل ماتولى امور الحكم ، وكان ارق الناس قولاً وعملاً ما فرغ لحياته الخاصة . وقد ذهبت حياته الخاصة مع ما يذهب من حياة الناس ، وبقيت من حياته العامة آثار تصور نفسه البشعة وقلبه القاسى وطبعه الجافى وعنفه الذى لم يكد تاريخ المسلمين يعرف له نظيراً

وكان محمد بن عبد الملك الزيات يقول فيما كان يقول : ان

الرحمة خور في الطبيعة ، وكان محمد بن عبد الملك الزيات يقترف فيما كان يقترف من الآثام . أذاق الناس ألوانا من العذاب لم يعرفها قبله عرب ولا عجم . والله عز وجل يجعل الانتقام حينا ويملى للقساة الجفاة الظالمين أحيانا ، وقد عجل الانتقام من محمد بن عبد الملك الزيات فذاق العذاب الذي أذاقه الناس أيام حكمه ، وكان معذبه يقول له « ذق انك أنت العزيز الكريم »

ولست أدري لم ذكرت محمد بن عبد الملك الزيات وقصته هذه البشعة ، وسيرته هذه المنكرة وحكمه هذا البغيض ، وقد تغيرت حياة الناس فرقت طباعهم بعد جفوة ، ولانت قلوبهم بعد قسوة ، ولم يبق بينهم في مصر على الأقل من يقول إن الرحمة خور في الطبيعة ، ومن يعذب الناس في تنور قد قرشت أرضه بالمسامير المديبة ، وقد امتدت هذه المسامير المديبة في سقفه وجنابته فما يقيم فيه المعضب البائس إلا على هذه المسامير تأخذ لحمه من كل ناحية أن أقام ساكنا أو تحرك في تنوره هذا المنكر البشع

ليس في مصر شيء من هذا إلا أننا قد تحضرنا فرقت طباعنا وصفت أذواقنا ولانت قلوبنا وتهذبت نفوسنا . وأذن فما الذى يذكرنى بمحمد بن عبد الملك الزيات في القرن الرابع عشر للهجرة ، وفي مدينة القاهرة التى هى عاصمة مصر التى قال عنها اسماعيل العظيم رحمه الله « انها جزء من أوربا »

ذكرنى بمحمد بن عبد الملك الزيات في قسوته الغليظة الجافية ما لاحظته من أن الترف لم يغير من غرائزنا شيئا ، وإنما علمها القسوة المترفة وعلمها الافتنان في العذاب وعلمها الترف في ألوان الانتقام ، فنحن لانعذب الاجسام وإنما نعذب النفوس ، ونحن لانلقى الناس في تنور اشترعت فيه المسامير من جميع اقطاره وإنما نلقى الناس في ألوان من العذاب ليست أقل بشاعة ولا نكرا من هذا

التور الذي ابتكره ذلك الوزير العباسي في القرن الثالث للهجرة
وفي مدينة السلام

وليس في هذا شيء من الغرابة فان تقدم الحضارة الانسانية
لم يرق العقل وحده ، ولا الذوق وحده ، وانما رقى الفرائز ايضا
وعلمها فنونا من القسوة ما كانت لتخطر لمحمد بن عبد الملك
الزيات واضرابه على بال . وللفرنسيين تعبير يصور هذا
الترف في القسوة وهذا الافتنان في الانتقام ، فهم يقولون فيمن يصب
على الناس عذابا هادئا ولكنه متصل منته الى اشنع الغايات ،
انه ينضج من يعذبه على نار هادئة . ونحن والحمد لله بارعون
كل البراعة في الانضاج على النار الهادئة ، نجد في هذا لذة آثمة
خيثة توشك ان تكون مسخما كان الانهان يظن انه يمتاز
به من ذكاء القلب ونفاذ البصيرة وصفاء الذوق ودقة الطبع .
واى شيء ابغض واشنع واشد في النفوس نكرا من ان تصب على
خصمك هذا العذاب الهين اللين الرقيق ، الذي لا يكدر يرى ولا تكاد
اثاره تحس ، ولكنه متصل ويمضى مع الدقائق والساعات ومع الايام
والليالى ومع الاسابيع والاشهر والاعوام ، حتى يبلغ ببطئه هذا
الفظيع اضعاف ما كان يبلفه محمد بن عبد الملك الزيات بعذابه
المنكر السريع

واشنع من هذا كله واشد من هذا كله نكرا ان يصطبغ هذا
العذاب الهادئ المتصل البطيء بصبغة من العدل او مما اتفقنا
على ان نسميه عدلا ، فلا يجوز انكاره ولا يباح نقده ولا يصح
ان يلام فيه الذين يقترفونه ، لانهم ينفذون القانون ويتفادونه في دقة
حازمة صارمة ، وهم يحمدون لذلك ولا يلامون فيه ، وكيف يلام
الناس حين ينفذون القانون ؟ وكيف يعاب الناس حين ينشرون
هذا العدل الذي يصنعونه صناعة ويتكلفونه تكلفا ويناقضون به
طبائع الاشياء ويناقضون به هذه القوانين العليا التي لم يضعها

برلمان ولم يشرعها ملك ولا حاكم ، وانما ركبت في نفوس الناس
تركيبا وجعلت جزءا من فطرتهم

وما اشد حاجة الناس الى ان يفرغوا لانفسهم بين حين وحين
ويتدبروا اعمالهم واقوالهم بين وقت ووقت ، ويضعوا انفسهم حين
يضعون ضحاياهم ، ويسألون انفسهم ايصبرون لما يصيبون
على الناس من هذا العذاب الهادي البطيء المتصل لو ان غيرهم صبه
عليهم في هدوء وبطء واتصال ، هذا الموظف في وزارة المعارف
الذي اراد ان يلحق طفلا من اطفاله بروضة من رياض الوزارة
لينشأ مع اخويه فلم تكتف الوزارة بان ردت طفله الجديد ،
ولكنها انخفت به في البيت اخويه الذين اقاما في الروضة عامين او
اكثر من عامين ، ثم حولتهما بعد ذلك الى روضة خيالية قد
انشئت في عقول الموظفين في وزارة المعارف ولم تر الشمس الا بعد
وقت غير قصير ، وقد ذهب هذا الموظف باطفاله الى روضتهم
الجديدة البعيدة فلم يجد شيئا ، ثم ذهب بهم فلم يجد شيئا . ثم
فتش واستقصى . وسال القاصي والداني . وسال مكتب البريد فلم
يجد شيئا ، ثم ذهب بعد ذلك فوجد دارا مهدمة ليس فيها
مرفق ولا اداة من ادوات التعليم والتربية واللعب ، ليس فيها
طعام يؤكل ولا ماء يشرب ، فعاد باطفاله الى داره كئيبا محزوننا
كاسف البال ، وكان قد شكى للوزير فلم يسمع الوزير له اول ثم
يعلم الوزير بانه قد شكى اليه

وقد جعل كل ما اصبح رأى اطفاله يبكون ، لان سيارة الوزارة
التي كانت تحملهم الى الروضة في الايام الماضية تمر بهم مصبحة
ممسية فلا تغدو بهم على الروضة ولا تروح بهم منها ، وانما تمر بهم
ساخرة منهم مزدرية لهم تحمل اترابهم فرحين مرجين يتسمون
للصبح المشرق الذي يسوقهم الى المدرسة ، ويتسمون للنهار المبصر
الذي يردهم الى دورهم ، وهؤلاء الاطفال البائسون يرون سياراتهم

ويرون أترابهم دون أن يستطيعوا ركوب السيارة أو مشاركة الأتراب في ابتسامات الغدو أو ابتسامات الرواح

رأى هذا الموظف أطفاله على هذه الحال ، وذاق هذا الموظف مع أطفاله مرارة الحرمان وقسوة هذا العذاب ، وقد أراد سوء حظه وسوء حظهم أن يكون هؤلاء الأطفال اليتامى قد فقدوا اسمهم كما كان هو مترملا قد فقد زوجه ، وكان هذا الموظف يجد في تربية أطفاله وتنشئتهم من العزاء عن فقد زوجه ، وكان معتقدا أنه يرضى نفس امراته كلما نجح في العناية بأطفاله وفي تربيتهم لأنه يؤدي لهم ما كانت خليقة أن تؤديه لو أتيح لها البقاء . فلما أذى الأطفال في تعليمهم وفي لعبهم ، ولما أذى لأب في تربية أطفاله وتنشئتهم ولما رأى الأب دموع أطفاله مع الصبح ودموع أطفاله مع المساء وضجر أطفاله أثناء النهار لم يستطع على ذلك صبرا ، ولم يملك نفسه ، فشكا في الصحف لعل الوزير يقرأ شكاته فيمسه بشيء من الانصاف ويمس أطفاله بشيء من العطف ويرد إليهم واليه حقهم من العدل الذي كلف أن يشيعه بين الناس

شكا ولكن الوزير لم ينصفه ولم يعطف على أطفاله ولم يرد إليهم ولا إليه قليلا من العدل ولا كثير ، لم يفكر في الأب الأرملة ولا في الأم الميتة ولا في الأطفال الصغار اليتامى ، وإنما فكر في الموظف الذي نقد الوزارة في الصحف ورأى أن هذا النقد أثم في - ات الحكومة وأن القانون المالي يعاقب عليه

بالعقول الواسعة . بالقلوب الرحيمة . بالطباع المهذبة . باللاذواق المصفاة . أما الأبوة البائسة وأما الطفولة التعسة فلا يحفل بها . الوزراء ولا يلتفتون إليها ولا يقفون عندها ، لأنهم أن فعلوا ذلك كانوا رحماء ، والرحمة خورعى الطبيعة كما كان يقول محمد ابن عبد الملك الزيات

وأما أن يلتفت موظف وزارة المعارف الى واجبها ويدلها على خطئها ويدعوها الى اصلاح هذا الخطأ فهذا هو الاثم كل الاثم .

والاجرام كل الاجرام ، وهو التقصير في ذات القانون وهو الخروج على النظام ، والسكوت على هذا كله ضعف أى ضعف ، والعقاب على هذا كله عدل أى عدل وحزم أى حزم . ألا بعدا للعدالة والحزم أن كانت غايتهم اهدار أبوة الأباء وبنوة الإبناء ، وتضييع ما للناس على الدولة من حق والغاء ما على الدولة للناس من واجبات

أساء الموظف اذن الى الدولة في رأى الوزير فيجب أن يعاقب فلما أساء الوزير الى الامة في أشخاص هؤلاء الاطفال الصغار فيجب أن تذهب هدرا ، كذلك يريد العدل المصنوع . وقد حقق مع هذا الموظف فألقيت عليه أسئلة صريحة أجاب عليها اجابة صريحة وكان من الممكن أن يقرأ الوزير وأن يقدر أبوة هذا الاب البائس ، وبنوة هؤلاء الابناء البائسين ، ولكن الوزير لم يقدر أبوة ولا بنوة ، وانما قدر أن الحكومة قد أساء اليها فيجب أن تنتقم من المسيء ، فأصدر أمره بنقل هذا الموظف الى الصعيد الاعلى ، هناك حيث لا توجد رياض للأطفال ، وحيث لا يجد هؤلاء الاطفال الذين نشئوا في القاهرة ما يلائم حياتهم الهائلة المتواضعة ، ولو أن هؤلاء الاطفال أما ترعاهم لسافر أبوهم الى الصعيد الاعلى جادا كادا ملتصبا له ولهم أسباب الرزق ، ولكن الاطفال يتامى لا يعولهم الا أبوهم ولا يستطيع أن يعولهم في الصعيد الاعلى ، فطلب الموظف الى الوزير أن يعفيه من هذا النقل ليرعى أطفاله ويقوم منهم مقام الاب والام جميعا

ولكن الوزير لم يفكر في الابوة البائسة ولا في الطفولة اليائسة ولا في الامومة التي ذهبت بها الاقدار وانما فكر في أن وزارة المعارف قد أساء اليها فيجب أن تنتقم من المسيء ولذلك أبى الوزير أن يقبل عذر هذا الاب البائس ، وحدد له موعدا يصل فيه الى الصعيد الاعلى ، ونظر الموظف فاذا هو مخير بين أمرين أحلاهما مروا يسرهما نكر ، فلما أن يرضى الوزير فيجحد حق ابنائه عليه ويجحد حق امرأته عليه أيضا ،

حق امرأته الميتة التي لا يمكن استرضائها ولا الاعتذار اليها ،
واما أن ينهض بحق أبنائه وحق زوجه وحق أبوته فيغضب الوزير
وقى غضب الوزير ضياع المنصب وانقطاع المرتب وتعرض الاطفال
الصغار للجوع والحرمان

وقد اختار الموظف فأرضى حق الابوة والبنوة والامومة واحترام
الوزير أيضا بين الرحمة التي أودعها الله في النفوس والعدل
الذى صنعه الناس صناعة، فترك الرحمة التي نشرها الله وآثر
العدل الذى صنعه الناس ، وأحال الموظف الى مجلس التأديب ووقفه
عن العمل وقطع مرتبه

وقد قلت لك اننا بلغنا من الترف في الانتقام والافتتان في
حب العذاب الهادئ المتصل البطيء ما لم يبلغه محمد بن عبد
الملك الزيات . ففي اليوم الثلاثين من شهر اكتوبر ارسلت الوزارة
الى البنك كتابا تأمره فيه الايصرف لهذا الموظف مرتبه عن
شهر اكتوبر وعلم الموظف ذلك من البنك نفسه لا من الوزارة، وذهب
الى الوزارة في اليوم الاخير من شهر اكتوبر يسأل عن هذا القرار
ف قيل له انه صدر ولكنه لم يطبع بعد . ومعنى ذلك ان البنك
قد عرف القرار قبل ان يعرفه الموظف . ومعنى ذلك ان هذا
الموظف ذهب في آخر الشهر ليتقاضى مرتبه فلم يجد شيئا ولم
يكن قد عرف من امر القرار شيئا . ومعنى ذلك ان هذا
الموظف عاد الى بيته في ذلك اليوم صفر اليد مما تعود ان يوسع
به عليهم ، وأن يرزقهم منه رزقهم حين يصبحون وحين يمسون .
ومعنى ذلك ان هذا الموظف لم يعاقب في نفسه وحدها ، وانما
عوقب في اطفاله الصغار . ومعنى ذلك ان هذا الموظف لم يعاقب
وحده ، وانما عوقب معه اطفال ابرياء اكبرهم في السادسة
واصغرهم في الثالثة . لان هذا الموظف نقد الوزارة في الصحف .
ومعنى ذلك ان الوزارة اكرم على نفسها من ابوة الآباء وبنوة الإبناء،
وحق اليتامى لاني ان يتعلموا بل في ان يعيشوا .

هذا هو العدل الذى صنعه الناس والذى تقوم عليه قوة الحكومات . فأما الرحمة التى خلقها الله ، فأما العدل الذى اراد الله أن ينشر فى الارض، فأمر أن لا يشبتان لما ينبغى لوزارة المعارف من كرامة فى نفوس الموظفين . والغريب أن وزير المعارف اب وان ما اجراه على هذا الموظف يمكن أن يجريه عليه طاغية من الطغاة فى يوم من الايام، والغريب أن وزير المعارف اعوانا كلهم اب، وكلهم يعرف حق الأبوة وحق البنوة وما ينبغى للأطفال الصغار اليتامى من رعاية وعناية وحماية من الآفات .

كل هذا غريب حقا لان التسلط يعمى البصائر والابصار عن حقوق الأبوة والبنوة، ولان التسلط يملأ النفوس غرورا وفتونا وتكبيرا وتجبرا ، ويرتفع بها عن الرحمة التى هى خور فى الطبيعة كما كان يقول محمد بن عبد الملك الزيات .

أى العذابين أشد نكرا ! عذاب التنور الذى أشرعت فيه المسامير المديبة والذى يآلم فيه المعذب أيا ما ثم يموت ، أم هذا العذاب الرقيق الرفيق الرشيق الهادئ المتصل البطيء الذى لا يرى ولا تحس آثاره ولكنه يفنى النفوس شيئا فشيئا ، ويعلم الأطفال أن الحرمان قد يؤذى، وأن الظلم قد يملأ النفوس بأسا، وأن الجوع قد يكون كريه المذاق

أى العذابين أشد نكرا ، هذا العذاب الذى كان يصبه محمد ابن عبد الملك الزيات على الاجسام حتى تهلك، أم هذا العذاب الذى يصب فى هذه الايام على النفوس فيعرضها لفقدان الكرامة وللشعور بالذلة والاستخذاء أمام المتسلطين الى هذا انتهت بنا الحضارة المترفة ويقال بعد ذلك أن اخص ما يمتاز به العصر الحديث انه علم الناس أن لهم ضمائر تحب الخير وتكره الشر ، وتندم حين تصيب الناس بما تكره ان يصيبها الناس به

ربما كان هذا حقا ، ولكن هذه الضمائر التى استكشفتها الانسان فى العصر الحديث تمتاز أيضا بالرونة، فهى قادرة على أن تتشكل

بما يقدم اليها من الاشكال ، وهى قادرة على ان تستدير مع الشمس ، وهى قادرة على ان تستقبل الريح من حيث تهب ، وهى قادرة على ان تلغى ابوّة الاباء وبنوة الابناء وأمومة الامهات وان تكن فى غيابات القبور. وهى قادرة على ان تعرض الاطفال الصغار اليتامى للجهل والفقر والمرض والجوع ، لا لشيء الا لان وزارة المعارف قد تقبّدت فى الصحف وهى اكرم من ان تنقذ فى الصحف وان كان الناقدون آباء لا يعرفون كيف يعلمون أبناءهم

معذرة أيها القارئ الكريم انى لاشعر ان فى هذا الحديث مرارة قد تؤذى نفسك وتؤلم قلبك ولكنك توافقنى فيما اظن على ان فى حياتنا أشياء ان رضىها ضمير الوزراء واعوان الوزراء فلا ينبغى أن ترضأها ضمائر الشعوب

الشجاعة

لم تخطيء وصفه ياسيدتي ، فهو شجاع بأدق معاني هذه الكلمة وأكملها وأشملها ، ولكن بشرط أن تفهمي من الشجاعة معنى غير هذا المعنى المألوف الذي ابتذله الناس في ادبهم القديم والحديث . فليس في صاحبنا من شجاعة الناس شيء ولعله ان يكون بعدهم عنها إبراهيم منها ، وادناهم الى الخوف الذي يخلع القلوب ، والهلع الذي يفسد المروءة ، والجزع الذي تطير له النفوس شعاعا . وآية ذلك انه حريص أشد الحرص على ان يرضى كل انسان مشفق أشد الاشفاق من ان يغضب اى انسان ، لا يحرص على ان يرضى الجماعات أيضا . ولعل حرصه على ارضاء الجماعات ان يكون اشد من حرصه على ارضاء الافراد ، ولا سيما حين يكون لهذه الجماعات من القوة حظ قليل أو كثير وحين يكون بينها وبين السلطان سبب طويل أو قصير . والامر عنده في ارضاء الافراد والجماعات يدور على ما يرجو من منفعة وما يخشى من مضرة فهو حيثما رجا المنفعة عظيمة كانت او يسيرة ، حلو الشوائب سمح الاخلاق سهل المراس ، لين العريكة ، مهذب الطبع ، منقف الذوق ، عذب الحديث ، وهو على نقائص هذه الخصال كلها اذا لم يرج

نفعاً ولم يخش ضراً ، فيه ما شاء الله من شراسة الطبع وجفوة
التخلق وغلظة الذوق وانحراف المزاج ، وسوء العشرة ، وصعوبة
المراس وخشونة الحديث

وأظنك توافقيننى ياسيدتى على ان شيئاً من هذه الخصال
لا يلائم اخلاق الرجل الشجاع . فالشجاع لا يقيم امره على الرياء
ولا يجرى حياته على المصانعة ، ولا يلين حين تجب الشدة ولا
يشدد حين يحسن اللين

والشجاع بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة لا يسرف في ايثار
نفسه بالخير ولا يضحي في سبيل هذا الايثار بما يجعل
الرجل الكريم رجلاً كريماً . ومع ذلك فصاحبنا شجاع بشرط ان
تفهمى الشجاع كما اراد ان يفهمه الشاعر القديم حين قال : -
وأطرفت اطراق الشجاع ولويرى مسأغا لنايه الشجاع لصمما

فالشجاع هنا اسم لا وصف ، وهو لا يدل على الرجل الذى
يصبر نفسه على المكروه ويحشمها الهول في سبيل ما يتم مروءته
ويكمل رجولته ، ويرفع منزلته ويجعله ممتازاً بين الممتازين
الذين يستحقون الامتياز ، ولا يغضبونه غضباً وانما يدل على
الحية التى تستخفى في جحرها لا تكاد تظهر منه الا رأسها الدقيق
وتظل على حالها هذه مستخفية طرفة ، حتى اذا مكنتها الفرصة
ووجدت مسأغا لنايها لم تضيعها وانما عضت فصممت
كما يقول هذا الشاعر وبلغت من عضتها وتصميمها ماتريد

وهذه الحية أو هذا الشجاع لا يستخفى في الجحر دائماً
ولكنه يستخفى في رمال الصحراء ويستخفى بين الصخور
الغلاظ ويندس في الفراش الوثيرة ، وهو سارب بالليل وسارب
بالنهار يحسبه من يراه هادئاً كل الهدوء سطمئناً كل الاطمئنان ولا
يكاد يقدر ان على احد منه بأساً لولا ان الانسان قد عرف اخلاقه
منذ أقدم العصور ، ولكن هدوء الهادى لا يفر الناس عنه واطمئنان
الطمئن لا ينسى الناس ما بلوا من اخلاقه وهذا هو الفرق الوحيد
بين الشجاع الذى نتحدث عنه والشجاع الذى ذكره الشاعر

القديم . معروف الأذى منتظر الشر قد تواصى الناس بيفضه وخوفه واجتنابه منذ عرفوه . وأما الشجاع الذى نتحدث عنه فإنه رجل مثلنا يشاركنا فى كثير من صفات الناس ويضطرب معنا فى كثير مما نضطرب فيه من شئون الحياة ، وهو من اجل ذلك يخدعنا عن نفسه وأمله ان يخدع نفسه عن نفسه ايضا ولست ادرى ايهما شر ، شجاع الحيات الذى لا يراه الناس الا فزعوا منه واتقوا شره او شجاع الناس الذى نراه فنطمئن اليه ونصل اسبابنا باسبابه ونقدم اليه المعروف ونتنظر ان يقدم الينا المعروف او الا يصيبنا منه مكرهه على أقل تقدير

وقد زعم بعض الناس للجاحظ ان من الحيات ما له راسان ، وزعم بعض الاعراب للجاحظ انه رأى هذا الصنف من اصناف الشجعان ، فلما سأل الجاحظ باى الرأسين يسعى وبأيهما يطعم قال انه يفطر بأحد رأسيه ويتغذى بأحدهما الآخر ويسعى بهما جميعا . . قال الجاحظ وهذا من اكذب الكذب . ومن الجائر ان يكون الاعرابى قد كذب على الجاحظ فى وصفه لشجاع الحيات ولكن من المحقق ان لشجاعنا الانسى رأسين وانه يفطر بأحدهما ويتغذى بأحدهما الآخر . أو قولى ان شئت يا سيدتى أن له لونين من ألوان الغذاء وقد خصص لكل لون منهما رأسا من رأسيه هذين فله غذاء مادى يأتلف من هذا المال الذى يجمعه شيئا فشيئا ويحصله قليلا قليلا ويضم بعضه الى بعض فى اناة ورفق وانتهاز للفرص ، وله غذاء معنوى يمازجه شئ من المادة هو هذه الدرجات التى يسعى لها منذ اتصلت اسبابه باسباب العمل فى الدواوين ، فهو يلتصقها فى اناة ورفق وانتهاز للفرص ، كما يلتصق غذاءه المادى ذلك . وما اكثر الذين يتاح لهم ان يعملوا فى دواوين الحكومة او غيرها من مكاتب الاعمال العامة ، ويعنون مع ذلك بجمع المال وتدبير الثروة والاستكثار مما يتيح لهم الغنى ويملا أيديهم من حطام الدنيا ، ولكن المهم الذى يمتاز به صاحبنا ويشبه به الشجاع شبها قويا ، والشجاع ذا الرأسين ، هو

طريقته في جمع المال وتدبير الثروة ، وطريقته في التماس المناصب وابتغاء الوسائل الى الرقى في درجاتها المختلفة . فهو لا يسعى في ذلك كما يسعى الناس ، وانما يتأتى له كما يتأتى الشجاع للفريسة التي يعمل فيها نايه وينفث فيها سمه الناقع وقد زعم بعض الصقالبة للجاحظ أيضا أن من الحيات ما يلتف على البقرة الحلوب التفافا حتى يبلغ ضرعها فيرتضعه في شره وما يزال يشرب ما فيه من لبن حتى يمتلئ وينتفخ ويتراخى . واذا هو يترك البقرة ويستلقى سكران من كثرة ما شرب ولكنه قد اضطر فريسته الى الهلاك

وكذلك يفعل صاحبنا في جمعه للمال حين يجمعه وفي انتماسه للمنصب حين يلتمسه ، يرى الفريسة امامه فينظر اليها ويصل بها نفسه وقلبه وعقله ، ثم يثب اليها حين تمكنه الفرصة ثم يلتف عليها وما يزال يمتصها امتصاصا ويرتضعها ارتضاعا حتى ياتي على آخر ما عندها . اورثته أسرته ثروة متواضعة ليست بذات غناء ولكنه لم يقنع بها . ومتى قنع الناس بما يتاح لهم من اعراض الدنيا ، لم يقنع بها وانما طمع في تنميتها . وفي تنميتها على حساب جيرانه وخلانه وذوي مودته ، والذين كانت بينهم وبين أسرته صلات المحبة والالفة وحسن الجوار ، فاطرق اطراق الشجاع ، وجعل ينتهز الفرصة حين تسنح ويتربص الدائرة حين تدور ويرقب النائية حين تنوب . فلا تزال عينه ناظرة الى ما حوله من ارض جيرانه ولا تزال نفسه متصلة بها حتى تعرض حاجة جار من جيرانه الى بعض المعونة الى ما يحتاج اليه صاحب الارض من هذا القرض الذي يؤدي به الحق حين يلزم ، ويدفع به لخطيب حين يلم . هنالك يرفع الشجاع راسه من اطراقه ، وهنالك يكون الاطماع ويكون الامتناع ، وهنالك يكون الدنو ويكون النأي ، وهنالك يكون القرب ويكون الهجر والحاجة ملحة على جاره ولعله ان يشارك

في جعل هذه الحاجة ملحة مشتدة في الإلحاح ، وما يزال
بجاره يبدى له المال ويخفيه عنه حتى اذا وجد مساعدا لئلا يبه أذى
المال واخذ مكانه رهنا مقبوضا

وكذلك انفق حياة طويلة يداعب جيرانه هذه المداعبة
المرّة ويلاعبهم هذه الملاعبة البغيضة ، حتى ضم أرضهم الى
أرضه ومالهم الى ماله وحتى ردهم فقراء بعد غنى وأشقياء
بعد سعادة ومحتاجين الى الرفق والعطف بعد ان كانوا
يبدلون الرفق والعطف ، واذا هو سيدهم ، وقد كان واحدا منهم .
واذا هم يدينون له بالطاعة ويلجأون اليه عند الملمات ، ويعملون
في أرض كانت لهم فاصبحت له واصبحوا هم لها وله في وقت
واحد .

واذا هو يستكبر ويستعلى ويظفي ويغنى ويشق على من
كانوا له اكفاء فأصبحوا له أجراء . وكذلك عمل احد هذين الراسين
في الازدراء والالتهام لكل ما كان حوله من المال والثراء ينتهز
الفرصة كلما سنحت ويخلقها اذا لم تسنح ويبدل الحيلة كل
الحيلة في خلقها وابتكارها ان امتنعت عليه . وهو على هذا
كله هادىء وادع مطمئن يشيع في قلوب الذين يرونه أمنا وأنسا
ودعة ورفقا ، حتى اذ عضهم بنايه عرفوا كيف تكون مساورة
الحيات . ولو كان لهم حظ من ثقافة أو أدب لأنشد كل واحد
منهم قول النابغة :

فبت كاني ساورتنى ضئيلة من الرقش في أنيابه السم نافع

وأما رأسه الثاني فيعمل في القاهرة ، يستقر في مكتب من
المكاتب وفي ديوان من الدواوين كما يستقر الشجاع في جحره
أو يطرق كما يطرق الشجاع في كتيب من رمال الصحراء ،
يسعى هادئا كما يسعى النسيم ، ويتساب رفيقا كما يتساب
ماء ينبوع ، وهو على ذلك حذر مكر يرقب الفرصة ويسعى

بالكيد ، ويفرق بين الصديق ويفرى بالزميل حتى اذا امكنت الفرصة ووجد مساعدا لنائبه صمم واحسن التصميم ووثب الى فريسته فانطوى عليها كما ينطوى شجاع الجاحظ على البقرة الحلوب ، وما يزال يمتص فريسته حتى يأتى على آخر ما عنده ، واذا هو قد ارتقى من منصب الى منصب ، ووثب من درجة الى درجة وقفز من مرتبة الى مرتبة ، واذا الذين كانوا له رفاقا وزملاء قد اصبحوا له مرؤوسين يجدون في طاعته ويصدرون عن أمره ، وقد ملأ الجو من حوله منكرا وكيدا وخبثا ودهاء ونفث السم في البيئة كلها كما ينفث الشجاع سمه في الفريسة حين يظفر بها

واخص ما يمتاز به الشجاع انه على ما يظهر من لينه ورخاوته وتهالكه ومرونة جسمه شديد الايد لا يعياشيء ، واقوى ما فيه انيابه ومعدته . فانيابه لا يعيها شيء ومعدته لا يعجزها قضم . وهو من أجل ذلك لا يتعب ولا يبلغه الجهد مهما يحاول من أمر ومهما يتكلف من مشقة . وهو من أجل ذلك لا يرضى مهما حقق من أمل ولا يقنع مهما يبلغ من أرب ، وهو لا يمضغ دائما ولكنه يمضغ حيننا ويزدرد أحيانا ويهضم على كل حال . وامر صاحبنا كأمر الشجاع في هذا كله ، فأرأسه العامل في القرية لا يطرق الا ليشب ، وأرأسه العامل في القاهرة لا يطمئن الا ليثور ، ومعدته مضطربة دائما بهذا الهضم المتصل الذي لا يذرشينا أتى عليه الا جعله كالريم .

وللشجاع صفيير يؤذى وفحيح يخيف ، ولو قد سمعت صاحبنا ياسيدتى حين يعيث به الطمع ويحركه الاغراء وتدعوه الفريسة الى القضم والهضم ، لسمعت صياحا منكرا وجثرا بشعا ليس أقل نكرا ولا بشاعة مما يبعثه الشجاع حين يتهاى للوثوب من صفيير وفحيح

وليس لشجاع الحيات منزل يختاره ويؤسسه ويؤثر المقام فيه وانما هو ساع دائما يأوى الى حيث يحب ان يأوى ويغير حيث يحب أن يغير، وهو من اجل ذلك شائع الاذى متصل الشر منتشر العدوان، وصاحبنا يشارك الشجاع في هذه الخصلة كما يشاركه في غيرها من الخصال، فهو لا يؤثر مالا بعينه ولا يؤثر عملا بعينه ولا يؤثر صديقا بعينه ولا يؤثر عدوا بعينه، وانما المال كله صالح للجمع وتوفير الثراء، والعمل كله صالح لنيل المناصب وارتقاء الدرجات والناس كلهم له صديق والناس كلهم له عدو، وهو قادر على ان يندس في كل مكان ويحصل في كل مجلس، وينسب في كل ناد ويقول في كل شيء ويكتب في كل موضوع وينفث السم حيث يتاح له ان ينفث السم. اى حيث يتاح له ان يتنفس. فالهواء كله قد سخر له يودعه سمه فينقله حيث يسعى النسيم وحيث تجرى الريح عاصفة او رخاء. ولشجاع الحيات المصرية شهرة ذائعة واحاديث شائعة وذكر قديم وصوت بعيد. وعهد مصر كما تعرفين الحيات قديم ذكرت مع فرعون في الكتب المنزلة وظهرت مع فرعون في النقوش والاثار، ولكن عهد مصر بالشجعان الانسية قريب فيما يظهر، وهو على قربه خصب بعيد الاثر، فقد كثرت شجعان الناس في مصر منذ اضطربت السياسة وتلاحقت الخطوب ومكر بعض الناس ببعض وكاد بعض الناس لبعض، وتوشك مصر ان تعرف بشجعان الناس كما عرفت بشجعان الحيات قالت السيدة متضا حكة وكانت ازبية. حسبك فقد روعتني واخشى ان تكون قد روعت نفسك، فاذا ذكر ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعوذ بالله من ان يتخطبه الشيطان عند الموت ومن ان يموت في سبيله مدبرا ومن ان يموت لديفا

سير الابرار

لا تكلف نفسك مشقة ولا جهدا فلن يتاح لك حل هذا اللغز
بالمشقة والجهد ولا بالروية المتصلة والتفكير الطويل . وليس
مصدر ذلك ان هذا اللغز عسير الحل ، ولا ان الطريق الى حله
ملتوية متشعبة يوشك سالكها ان يجور فيها عن قصد السبيل ،
بل مصدر ذلك ان هذا اللغز يسير جدا ايسر مما تقدر واقرب
الى الحل مما تظن ، وان الطريق الى فهمه قصيرة مستقيمة
لاطول فيها ولا التواء . فانت ترى صاحبنا اعجوبة من اعاجيب
الدهر وغريبة من غرائب الزمان . تجلس اليه فلا تكاد تسمع منه
صوابا ولا تكاد تفهم عنه شيئا ، وتحدث اليه فلا يفهم عنك الا ايسر
ما تقول ولا يكاد يرد عليك رجع الحديث حتى يأخذك شئ من
العجب لانك لا تدري اتحدث الى عاقل ام تحدث الى مجنون
وانت تنظر الى جسمه هذا الذى يمتد عن يمين وشمال ، ومن
وراء وامام ولا يكاد يرتفع في الجوالا قليلا ، ولا يكاد يجد من
الناس وكراسيهم ما يسعه تمايسع غيره من الناس ، فيخيل اليك
ان هذا اللحم المتراكب والشحم المتراكم قد القى بين نفسه وبين

العالم حجابا صافقا واستارا كثافا . . . فهي لا تكاد تحس من العالم شيئا والعالم لا يكاد يبلغها الا بعد عناء شديد ، وانت تنظر الى وجهه الضخم الجهم فترى على شفثيه الفليظتين ابتسامة تدل على البله والغفلة اكثر مما تصور الفطنة والذكاء ، وترى أنفا ضئيلا قد كاد يفرق فيما يكتنفه من لحم خديه ، وجعل النفس يتردد فيه محتبسا مختنقا يسمع له صوت ثقيل بغيض . وترى جبهة ضيقة بارزة قد انسط فوقها رأس مفرطح عريض قل فيه الشعر واخذ فيه الصلع ، وجعلت تبدو من خلاله رقع ضيقة جرداء حتى أنكره وكره ان يكشف رأسه الا قليلا

وترى عينين مغمضتين كأن صاحبهما نائم مفروق في النوم فاذا أراد ان ينظر الى شيء امامه ، أو الى انسان بين يديه ، رفع جفنين متكسرين ورفعهما في شيء من الجهد فبدت من دونهما عينان صفرتان منطقتان لا تصوران نقطة ولا نشاطا ولا ذكاء ، وانما تصوران نوما وخمولا وغباء شديدا ، فاذا استمعت له وهو يتحدث اضطرت ان تجهد اذنيك لينقل عنه الصوت اليك لانه يتكلم في صوت ليس بالنعيل ولا بالضئيل ولكنه مع ذلك ليس بالقوى ولا بالمرتفع ، وانما هو صوت وسط بين ذلك مطرد منكسر أشبه شيء بالماء الفاتر يريد ان يجرى جريانا سواء فتعترضه عقبات يسيرة جدا يتغلب عليها وينشأ عن ذلك فيه تهدج وانحطام بين حين وحين ، فمنظره يؤذيك والاستماع له يضرنيك والفهم عنه يشق عليك والوصول الى نفسه يرهقك من امرك عسرا . والحكم الذي تكونه في نفسك حين تقبل عليه أو تنصرف عنه هو أنه غلظة من غلطات الطبيعة وفلته من فلتات الدهر ، ووهم من اوهام الظروف . كأنما أريد به الى ان يكون حيوانا من هذه الحيوانات الضخمة ذات الخلق المرتبك والشكل الذي لا يروق ، ثم عدل به في اللحظة الاخيرة الى شكل

الانسان فلم يحسن تقويمه ، ولم يعتدل قده ، ولم يتسق شكله ، ولم ينفخ فيه من الروح الانسانية العاقل الا جزء ضئيل ؟

كذلك تحكم عليه حين تلقاه وكذلك تحكم عليه حين تفارقه لولا انك مضطر الى ان تنكر هذا الحكم انكارا وترفضه رفضا وتعترف كما اعترف بأن له حظا عظيما من الذكاء والفطنة ، وبأنه يدبر أمره في حياته الخاصة والعامة تدبير المستبصرين أولى الذكاء النافذ والذهن المتوقد والعقل الذى لا يعبأ بالمشكلات ولا يرتد عن معضلات الامور . وانت حائر كل الحيرة فى هذا التناقض بين ما يظهر من شكله ومن عقله ، وبين ما يصدر عنه من الاعمال والاقوال التى لاتصدر عن غفلة ولا عن غباء

ومصدر هذا التناقض الذى تضيق به وتراه لغزا معضلا وتريد ان تلتمس له الحل فلا تجد الى حله سبيلا ، انك لم تعرفه كما اعرفه ، ولم تظهر من امره على ما أظهر عليه . فصاحبنا أعجوبة من غير شك ، ولكنها أعجوبة لا تكاد تثبت لمن يعرفه حق معرفته . وسبيل ذلك ان تصحبه يوما كاملا ، يوما يأتلف من النهار والليل . فالنهار وحده لا يفسره والليل وحده لا يجلوه ولا بد من ان يتعاون هذان الفرسان اللذان يستبقان دائما ولا يستطيعان ان يجتمعا فى مستقر واحد ، لابد من ان يتعاون هذان الفرسان على تفسير غامضه وتجلية امره لانهما قد اقتسما نفسه اقتساما كاملا

فالنهار منه نصيب لا يعرفه الليل ، والليل منه نصيب لا يبلوه النهار ، واية ذلك ان عين الفجر لم تره قط الا مغرقا فى نوم ثقيل او غارقا فى سكر عميق ، وان عين الضحى المشرق لم تره قط الا يقظان الجسم نائم النفس . وان صدر الليل ثم يره قط الا مرحا فرحا خفيفا رشيقا كأنه لا يحمل هذا الجسم الضخم الثقيل وانما يحمل جسما قد صور من الهواء ، فهو لا يسكن الا ليتحرك ، ولا

يستقر الا ليضطرب ولايسكت الا ليتكلم . وهو لا يتكلم بهذا الصوت الفاتر المتكسر ، وانما يتكلم بصوت مرتفع عريض يملا الفضاء ويسمع من بعيد ، وهو لا يجد مشقة ولا جهدا فى رفع جفنيه، ولا فى التنفس من أنفه الدقيق الضئيل، وابتسامته تلك الغافلة البلهاء تستحيل الى ابتسامة اخرى فيها كثير جدا من الفطنة وفيها كثير جدا من الذكاء

وهو على كل حال ليس نائما اذا جنه الليل وانما هو ابعد الناس عن النوم وأعظمهم حظامن اليقظة ، بل قل أنه يقظة كله ، يقظة لاتنام ولا تنيم . وانما توقظ الناس من حوله ولعلها تزعجهم ازعاجا، فهو حياة نائرة فائرة، وهو حركة هائجة مائجة، وهو تفكير متصل لا يعرف الانقطاع ، وكلام مستمر لا يعرف الوقوف

فله نفسان، نفس قد صحبت النهار تنام فيه وتؤذن الناس بانها مستيقظة ، ونفس قد صحبت الليل ، تسهد فيه وتخيل الى الذين لا يألفونه انها نائمة . وكل ما يصدر عنه من الاعمال التى تصور الذكاء ومن هذه الاقوال التى تصور الفطنة انما هو من وحى نفسه المستيقظة فى الليل، تقدره وتدبره ثم تهينه وتدخره لنفسه النهارية النائمة فيصدر عنها كما تصدر الاحلام عن النائمين

ولم يكن هذا حاله منذ مارس حياة الرجال وانما طرأ عليه قليلا قليلا كما طرأ بعض العلل على بعض المرضى . فقد كان فى المدرسة الثانوية واثناء الدراسة الجامعية فى مصر وفى أوروبا فتى كغيره من الفتيان يشارك أترابه فى الدرس ويشاركهم فى اللعب والمرح ، ولكنه يمعن فى الدرس اكثر مما كانوا يمعنون ويبلغ من النجاح اكثر مما كانوا يبلغون . فاذا اقبلوا على مرحهم استوفى منه حظا اعظم من حظوظهم ، وألح فيه الحاحا كثيرا ما كانوا

ينكرونه عليه ويلومونه فيه ، فلم يكن يلقي لومهم الا بالسخريه
ولم يكن يستقبل اعراضهم الا بالازدراء

وماله لا يفعل ذلك واسرافه على نفسه في اللهو لا يقصر به عن
اتقان الدرس والتفوق على اترابه فيه . وما الذى يمنعه ان يعطى
نفسه من لذة العقل اعظم حظ ممكن ، وان يعطى جسمه من لذة
الحس اكبر قسط مستطاع . ولماذا ينصف نفسه بما يتيح
لها من لذة العلم والمعرفة ، ويظلم جسمه بحرمانه لذة العبث
والمجون . وكذلك انشأ لنفسه فلسفة خاصة لاعمت حياته فى
أوربا ملاءمة ما ولكنها لم تلائم حياته فى مصر . فلأوضاع
الاجتماعية فى مصر خصائصها التى تفرض على الناس ، ولا سيما
حين يشغلون المناصب ويرضون الرؤساء ويرقون رقبيا سريعا ،
ألوانا من الوقار وضروبا من الاحتشام تضطرهم الى شئ من
الجد والحرمان ان كانوا اصحاب عبث ومجون

ومن أجل ذلك ضاق صاحبنا بالحياة اول الامر ضيقا شديدا
انتهى به الى سأم شديد ، وكاد ينتهى به الى يأس مظلم ، فقد
راى ابواب العلم والمعرفة والدرس والبحث مفتحة له على
مصاريعها . وراى فرص اللهو والعبث نادرة ووسائلهما محدودة
وابوابهما لاتكاد تفتح الا قليلا ، ولا تكاد تفتح الا لتفلق ، فاذا هم
ان يلج منها الى ما يريد اضطر الى كثير من الحذر والاحتياط
لان الاوضاع الاجتماعية فى ذلك الوقت كانت تفرض الحذر
والاحتياط . وقد هم ان يرضى نفسه ويهمل حسه وان يمعن
فى لذة العلم ويهدى فى لذة الاثم ، ولكنه لم يلبث ان آنس من نفسه
زهذا فى المعرفة وانصrafa عن الدرس وفتورا عن البحث
والدرس . ونظر فاذا هو يوشك ان يكون موظفا كغيره من الموظفين
الذين يضطربون من حوله خاملين لا يضيقون بالخمود والخمول ،
بل لا يشعرون بالخمود والخمول ، وانما هم راضون عن انفسهم
وعن حظوظهم ، قد اطمأنوا الى الحياة واطمأنت اليهم الحياة

وكان صاحبنا ابعد اناس عن الرضى وابغضهم للاطمئنان
واشدهم طموحا الى الرقى وطمعا فى الامتياز، فلم يكذب فكر
ويقدر حتى استيقن ان فلسفته لك قد خلقت له وانه خلق لها
وانها وحدها هى التى تستطيع ان تبلفه ما يريد من علو المنزلة
وارتفاع المكانة ومادام لا يرضى بالقليل ولا يقنع بما يقنع به عامة
الموظفين ولا يكفيه ان يخطو الى الامتياز خطوات متتدة معتدلة
وانما يريد ان يخطف الطريق خطفا وينهبها نهبا ويأتى بما سم
تستطعه الاوائل كما يقول ابو العلاء، فلا بد من ان يلجأ الى فلسفته
فيحيا بها ويحيا نها

وقد فعل فاعتزل الناس الا قليلا. جعل يلقاهم فى الديوان حين
يغدو على عمله فى الديوان وجعل يلقاهم آخر النهار ان اضطرته
الظروف الى ان يلقاهم آخر النهار، ولكنه جعل لا يكاد يستقبل
الليل حتى يتسهم لظلمته المظلمة ابتساما مشرقا، ويمد اليه يد
الصديق ويفتح له قلب الخليل ويتحدث اليه كما يتحدث الحبيب
الى الحبيب

اتخذ الليل سميرا ونديما واتخذ الشراب سميرا ونديما
واتخذ الكتاب سميرا ونديما ايضا فجعل كلما اقبل الليل
خلا اليه والى كتابه وشرابه ففكر وقرا وكتب، واحتسى
بين ذلك الكأس أثر الكأس حتى اذا تولى الليل الا اقله وكادت
توالى نجمه تتغور كما يقول ابن ابي ربيعة، اعرض عن الشراب
كارها وانصرف عن الكتاب محرجا يضطره الى هذا الانصراف وذلك
الاعراض انه لا يستطيع ان يمسك الليل ولا ان يرد النهار، وان
للقراءة والتفكير والشراب اثرافى العقل والجسم جميعا فلا بد
من الراحة بعد التعب ومن النوم بعد السهاد الطويل. فهو اذن
يسعى سعى المقيد فى الوحل كما يقول مسلم بن الوليد حتى
يلبغ سريره فيلقى نفسه عليه القاء ويستسلم للنوم استسلاما
وما اكثر ما كان يقبل على السرير والنوم وهو يبغضهما

أشد البغض، ويمقتهما أقبح المقت، ولكن لا بد مما ليس منه بد .
على أن النوم لا يلبث أن يطبق عليه أطباقا ويضمه ضمما عنيقا
ثقيلًا قصيرا أيضا

فهو يستيقظ قبل أن يرتفع الضحى ويفدو على عمله كما
تعرفه نائما أو كائنات مضافي هذا الدهول الغريب . وقد
طالت تجربته لهذا النوع من حياة أو لهدين النوعين المختلفين
من الحياة حتى أفهما الفامتصلا ، وأصبح لا يستطيع أن
يحيا إلا كما نراه نحن في النهار ، كما يراه الله وقليل من الاخلاء
في الليل

على أن حياته هذه المختلفة لم تلبث الا قليلا حتى ظهرت
آثارها في رايه وعمله وسيرته مع الناس . فهو أذكي من أن
يأمن السكر على آرائه وأعماله وأقوله فهو من أجل ذلك قد
أساء الظن بنفسه فجعل لا يرى رأيا الا اطال التفكير فيه والتقليب
له قبل أن يعلنه، يتهم فيه ليله هذا السكران ويخشى أن يدفعه
الى غير الصواب . وهو لا يقدم على عمل الا بعد التردد المتصل
وبعد الاحجام الطويل، وهو لا يقول قولا الا بعد أن يزنه كما يزن
الصيرفي دنائره بميزانه الحساس الدقيق . ثم جعل سوء ظنه
بنفسه يقوى ويشتد ويمتد حتى تناول الناس جميعا ، وإذا
هو لا يصدقك اذا استمع اليك كما أنه لا يطمئن الى ماتهدى اليه
من قول أو عمل ، لأنه يتهم الناس جميعا فيما يقولون ويعملون كما
يتهم نفسه في كل ما يعمل ويقول ، ويريد سوء حظه أو حسن حظه
لا أدري أن تتسم له الايام ويستجيب له الحظ فيرقى
ويرقى ويسرع اليه الثراء ، وإذا هو يشعر كما يشعر غيره من
التاس بأنه في حاجة الى أن يكون لنفسه أسرة ويؤسس لنفسه
بيتا فيتخذ الزوج ولكنه لا ينعم بالزواج الا أياما . فقد صرفته
زوجه عن ندمائه . الليل والشراب والكتاب صرفته فانصرف اول
الامر ثم لم يلبث أن أدركه السأم فجعل يرد نفسه الى ندمائه

هؤلاء شيئا فشيئا . وهو كلما رد من نفسه جزءا الى ندمائه
حرم زوجه هذا الجزء من نفسه فسعد هو وشقيت هي حتى
اذا عادت نفسه كلها الى ندمائه نعم بسعاده الكاملة وشقيت
بحرمانها الكامل . وعاش الزوجان في دار واحدة ولكن كلا منهما
اصبح لصاحبه عدوا يظهر الحب ويضمم البغض

قلت لصاحبى حين بلغ هذا الموضع من حديثه أو تظن الامور
تستقيم لهذا الكائن الغريب على هذا النحو الغريب من انحاء
الحياة . قال صاحبى : هيهات وكيف تستقيم الامور لرجل
يسامر ظلمة الليل التى تعشى الابصار وظلمة الخمر التى تعشى
البصائر ، ألم أنبئك بان حبه لهذه الظلمات قد افسد عليه
حياته الروحية ودفعه الى الاسراف فى سوء الظن بنفسه
وبالناس ، ومتى استقامت الامور لمن يقيم حياته على الاسراف فى
سوء الظن بنفسه وبالناس .

حيف

ألقى كل واحد منهما الى صاحبه نظرة دهشة واجمة، فيها كثير من هذه الغفلة الحائرة التي تنشأ من المفاجأة والتي تلم بالآمن المطمئن حين يفجأه من الامر ما لم يكن ينتظر، بل ما لم يكن يخطر له ببال، وكانت النظرة التي القاها كل منهما الى صاحبه خاطفة اول الامر، ولكنها عادت فطالت واستقرت شيئا ما، ولزمت مع ذلك صمتا، ان صور شيئا فاما يصور انعقاد اللسان حين تسيطر الحيرة على العقل فلا يفكر، وعلى القلب فلا يشعر، وعلى اللسان فلا يقول

وقد لبث كل منهما بازاء صاحبه ذاهلا غافلا لا يعرف ماذا يصنع ولا يدري كيف يقول، ولو قد عرض لهما هذا اللقاء المفاجيء لصابتهما الحيرة وقتا طويلا او قصيرا، ولتهيا آخر الامر الى مخرج من هذه الحيرة بكلمة تنفرج عنها الشفاه، أو ضحكة تنفجر لها الافواه. ولكنهما في موقفهما هذا لم يكونا يستطيعان ان يخرجوا من حيرتهما الصامتة الى الضحك او الى الكلام. فقد كان بينهما هذا القبر القائم يضطرهما الى شيء من الوقار لا يملكان معه ضحكا ان ارادا الضحك، ولا كلاما ان ارادا الكلام.

وهما من اجل ذلك قد لبثا صامتين واجمين . يلتصمان مخرجاً من هذا الصمت ، ومنصرفاً عن هذا الوجود ، فلا يجدان الى شئ من ذلك سبيلاً . وقد اخذ كل واحد منهما يحدث نفسه بالانصراف عن هذا القبر ، يرى في هذا الانصراف فرجاً من هذا الحرج ، ومخرجاً من هذا الضيق ، ولكن كل واحد منهما كان يسأل نفسه ايبدأ هو بالانصراف ام ينتظر حتى يضطر صاحبه الى ان ينصرف ؟ وانهما لفي هذه الحيرة المتصلة ، واذا خطر يسمع وقعته من بعيد ، فيرفعان رأسيهما وينظران من حيث يسمعان ، فاذا شخص يقبل بطيئاً رزيناً متكلفاً للوقار ، ولا يكاد يدنو منهما حتى يعرفاه كما يعرف كل واحد منهما نفسه ، فهو صديقهما الثالث الذى تعود ان يلقاهما حين يقبل المساء من كل يوم ، وان يسمر معهما حيث تعودوا ان يسمروا فى ناد من اندية القاهرة أول الليل ، وأن ينصرف معهما الى حيث تعودوا ان ينصرفوا حين يوشك الليل أن ينتصف ، فيلقون فى بعض الاندية الخاصة من يلقون من رفاق اللهو وخلان العبث والمجون ، حتى اذا كاد الليل يبلغ ثلثيه أوى ثلاثتهم الى تلك الدار التى تعودوا أن يأووا اليها فى آخر الليل ، وقد خلصت نفوسهم حظ اللهو ، وصفت ضمائرهم للعبث ، وحسن استعدادهم للمجون أو قل ان شئت لاستيفاء حظهم من المجون .

هنا لك يكون شرب الكؤوس الاخيرة ، وهنالك تنطلق الالسة بما تشاء فى غير تكلف ولا تحرج ، وهنالك ترسل النفوس على سجيتهما فى غير احتياط ولا تحفظ ، وهنالك يخلع الانسان عن نفسه هذه الخصال المصطنعة التى فرضتها الحضارة على المتحضرين ، ويصير الى حال من الانسانية المترفة الفاجرة التى تنحط بصاحبها ، أو ترتقى بصاحبها لا ادري ، الى حيوانية مترفة لا ادب فيها ولا وقار . حتى اذا انهزم الليل وولى مدبراً وانتصر الصبح وأقبل ظافراً ، انسلاوا من هذه الدار لا تكاد أقدامهم تحملهم ولا تكاد أجسامهم تسع نفوسهم ، ولا تكاد السننهم تنطق ، ولا تكاد عقولهم تفكر ، ولا تكاد قلوبهم تشعر ، لانهم قد اسرفوا على انفسهم

فى الاستمتاع بانسانيتهم المهذبة، التى نعمت حتى أفسدها النعيم
وانثرت حتى اطفأها الثراء ، وارتقت حتى انحدر بها الارتقاء
الى الدرك الاسفل من الانحطاط ، ولا يكادون يبلغون باب الدار
متشاقلين متهاكين يسندهم الخادم مكبرين لهم ساخرين منهم حتى
يتلقى كل واحد منهم سائق سيارته فيقره على شىء من الجهد
فى السيارة. يظهر الاكبار له ويضمم الاستهزاء به ، ثم يمضى بهذا
المتاع الغالى الرخيص حتى ينتهى به الى داره ، وحتى يرد منه الى
اهل الدار شيئا عظيما جدا فى اعين الناس حقيرا جدا فى عين
نفسه وفى عين اهله ، وهو هذه البقية التى تركها الصبا واللهو
والخلاعة والمجون

فاذا تقدم النهار وارتفع الضحى، وزالت الشمس أو كادت
تزول، افادت هذه البقية البالية من نومها الثقيل الغليظ وتلقاها
عمال الترف اولئك الذين يجددون البالى ويحسنون القبيح ويقىمون
المتهدم ويردون الشباب الى من فارقهـم الشباب . وما هى الا
ساعات حتى تستأنف هذه البقايا البالية حياة جديدة فيها نشاط
وقوة ، وفيها جمال ونضرة، وفيها شوق مجدد الى اللهو وفيها
نزوع مستأنف الى المجون . ولا يكاد النهار يبلغ اخره حتى يخرج
من هذه الدور أشخاص فيهم كثير من المرح ، وكثير من الفتون
وكثير جدا من الجهل والقروور

واذا هؤلاء الاشخاص يلتقون فى ناديهـم الذى تعودوا ان يلتقوا
فيه، فتكون الدعابة الفاترة وتكون الفكاهة الباردة ، ويكون
المزاح السخيف ، ويكون الاقبال الفاتر على العبث الفاتر ، وكلما
تقدم الليل ازداد النشاط واشتد المرح وعظم الخطر من
العريضة ، واخذ كل جسم من هذه الاجسام يصير ثوبا قد
دخلت فيه نفس جنبة طفى عليها الهوى وجمحت بها الشهوة ،
واندفع بها حب الائم الى غير حد واذا هم يستأنفون ليلا ،
كليلهم الماضى ويستقبلون حياة ناعمة يائسة كحياتهم الماضيهـة ،
يعودون الى دورهم مع الصبح بقايا محطمة لا تريد شيئا ، ولا

تقدر على شيء ولا تصلح لشيء حتى يشتمل عليها النوم فيرد
 إليها شيئاً من قوة. ثم يتناولها عمال الترف الذين يرفعون البالي
 ويجددون القديم حتى يردوا هذه البقايا البالية اشخاصاً قادرة
 مريدة. ولكنها لا تقدر الا على الفساد ، ولا تريد الا الاثم والمجون
 ولكنهم في هذه المرة لم يلتقوا في ناديهـم ذاك الذى تعودوا ان
 يلتقوا فيه حين يقبل الليل ، وانما التقوا في مكان لم يكن يشتظر
 ان يلتقوا فيه ، ولا ان يذهب اليه واحد منهم ، فليس فيه لهو
 وليس هو مظنة للهو ، وليس فيه سمر ، ولا هو مظنة للسمر ،
 ومتى لها الناس بين القبور ؟ ومتى سمر الناس حول قبر
 لم تمض على اقامته الا اسابيع قليلة ؟ كيف ذهب هؤلاء النفر
 الى هذا المكان الموحش في قلب الصحراء ؟ وكيف التقى هؤلاء
 النفر حول هذا القبر الذى نه تستقر فيه صاحبه الا منذ
 امد قريب ؟ هذه هى المسألة التى القاها كل واحد منهم على
 نفسه فوجد الجواب عليها سهلاً يسيراً ، وهم ان يفكر فيها
 ويستقصى التفكير ويتعقـه ، لولا انه لم يخلق للتفكر ولا
 للاستقصاء ولا للتعقـق ، وانما خلق للعبث ، والمجون الذى يفسد
 المروءة ويذهب بنضرة الاجسام والنفوس

فلم يكذـثـالـث القوم يرى صاحبه حتى اخذهما اخذهما من الدهش
 وعراه ما عراهما من الذهول ، وغشيه ما غشيهما من الوجوم ،
 ولكنه لم يملك نفسه طويلاً ، وانما هم ان يضحك ثم استحي من
 الغير فولى مدبراً وتبعه صاحبه ، حتى اذا بعدوا عن هؤلاء القوم
 اللذين لا تراور بينهم ولا وصل الا ان يكون نشور كما يقول
 ابو نواس ، تساءلوا كيف كان سعيهم الى هذا المكان ، ووقوفهم
 عندهذا القبر ، والتقاؤهم على غير ميعاد

وقد جعل بعضهم يكذب بعضاً في شيء من الحيرة المتبلدة او من
 التبلد الخائر ، ولكنهم تواصلوا ما راوا ووازنوا بين ما سمعوا فلم
 يروا بدا من ان يصدق بعضهم بعضاً ، ولم يروا بدا من ان
 يعترفوا بهذا الامر الغريب العجيب الذى كان خليفاً ان يملأ قلوبهم
 روعاً ونفوسهم هولاً ، لولا انهم تعودوا ان يجدوا في الكاس
 ما يغسل قلوبهم من كل روع ، وينفى عن نفوسهم كل هول .

ولست أدري الام صارت امورهم جميعا ولكن اعلم ان احدهم على اقل تقدير قد ادركه ذهول يشبه الجنون ، وغفلة تشبه الخبل وأملت به علة لست أدري أيشت لها أم يعجز عن أن يقاومها ويجد الى البرء منها سبيلا .

وقد تسألني انت عن سعيهم الى هذا المكان الموحش في الصحراء ووقوفهم عند هذا القبر الذي لم يقم الا منذ أمد قريب ، والتقائهم على غير ميعاد بين هذه القبور حين اخذت الشمس تنحدر الى مغربها ، وتجرر على هذه القبور اشعة شاحبة ، ان صورت شيئا فانما تصور حزنا كأنه كان صدى يردده الجو لهذا البلى الذي كان يعمل جاهدا فيما احتوته هذه القبور .

ولست أكره ان أقص عليك مصدر هذا كله . ولكنى اعتقد انك ستدهش لما أقص اليك من حديث . فانت وما شئت من الشك ، وانت وما أجبت من الثقة وانما الشيء الذى أطمئن اليه أنا كل الاطمئنان ، هو انى انما أحدثك بشيء قد وقع وأصور لك فى هذا الحديث امرا قد كان ، وكل ما أتمنى هو الا يعرض لك مثل ما عرض لهؤلاء النفر الثلاثة الذين أفسد عليهم أمرهم ما أغرقوا فيه من عبث واهو . ماتها لكوا عليه من أثم ومجون

كان هذا القبر الذى التقوا عنده مستقرا لغاية حسنة رائعة الحسن ، بارعة الجمال ، فاتنة الظرف ساحرة الطرف ، تعودوا ان يلقوها فى تلك الدار التى كانوا يأوون اليها من آخر الليل ويستنفدون فيها ما بقى لهم من قدرة على المجون والعبث ، وكانت تلقاهم لقاء سواء تعدل بينهم فيما تهدى اليهم من طرفها وخفتها ومن رشاقتها وناققتها ولباقتها ، ومن هذا التودد الذى يفري ويطمع حتى يخيل الى المرء انه مشرف على الغاية ، ومنته الى الامد ، وبالغ ما يريد ، ثم هو لا ينتهى به مع ذلك الا الى اليأس المهلك ، والقنوط الذى يملأ القلوب لوعة وعذابا ، فكان كل واحد من خلانها يستطيع ان يتمثل قول جميل :

وميتى حتى اذا ما ملكتنى بقول يحل العصم سهل الاباطح
تسألت عني حين لا لى حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح
ولكنهم كانوا اجهل جهلا ، واحمق حمقا ، وافرغ افئدة ،

واسخف عقولا ، من ان يتمثلوا الشعر أو شيئا يشبه الشعر .
انما كانوا اصحاب لذة غليظة جافية يشقون ليتنعموا . ويتعمون
ليشقوا ، ويألمون ليلذوا ، ويلذون ليألموا دون ان يوازنوا بين شقاء
ونعيم ، أو بين لذة وألم ، قد دفعوا الى الحياة وما فيها من
نعيم وبؤس ، فهم مندفعون الى الحياة لا يفكرون في نعيم ولا
بؤس . دفعهم الى هذه الحياة المنكرة ثراء لم يجدوا في كسبه عناء ،
وتربية لم تمنحهم أحلاما راجحة ولا بصائر نافذة ، ولا قلبا قادرا على
ان ترتفع عن اللذات المادية الاثمة والشهوات المندفعة الجامعة
فكانوا اذا يلقون صاحبتهم تلك فيمن يلقون من خيليات اللهو
ورفيقات العيب والمجون يجدون في هذا اللقاء حبا وبغضا ، ورضى
وسخطا وانجاحا وخفاقا . ولكنهم قد اتصلت نفوسهم جميعا بهذه
الفتاة اتصالا شديدا وتعلقت قلوبهم بها تعلقا عنيفا . واشتدت
امالهم فيها وعظم يأسهم منها حتى أخذ بعضهم ينفس على
بعض ما يصدر عنها من لفظ ولحظ وإشارة . وحتى كاد بعضهم
يصبح فيها لبعض عدوا . وهم على ذلك كانوا يجتمعون ويفترقون
لا يزيدهم الاجتماع الا تنافسا وتباعدا ولا يزيدهم الافتراق الا
حرصا على التداوى وتكلفا باللقاء
وقد أخذ كل منهم يظن بصاحبه الظنون ، يزعم أنها
تؤثر فلانا من دونه ، ويشترده حقه على فلان ومكره به ، وكيد
له ، حتى كاد الامر ينتهي بهم الى أعظم الشر . ولكن الايام
أراحتهم من هذا العناء المهلك ، فردت عنهم هذا الشر المستطير ،
لأنها اختطف من بينهم هذه العادة الحسناء في حادثة من
هذه الحوادث التي تنقل الناس من الدار الاولى الى الدار الآخرة
في طرفه عين . فاجتمعت قلوبهم على الحزن والنكل وحزن هؤلاء
وأمثالهم لا يتصل ولا يطول ، فما هي الا أيام حتى يستأنفوا
حياتهم كما ألفوها عابثة ماجنة وسخيفة فارغة .
ولكن احدهم يفيق من نومه مروعا ، مفزعا ، شديد الذهول
فقد رأى طيف هذه العادة الحسناء يلهم به في أثناء نومه

الثقيل فيذود عنه النوم ويرده الى يقظة شديدة . واذا هو ينظر فيرى صاحبه كما تعودان يراها فاتنة سحرية تدنو منه وتتلطف له وتتودد اليه ، وتقول له في صوتها العذب الذي يسحر القلوب : ما كنت احسب انك ستتركني حيداً ، انا وحيدة مستوحشة لا تهدي الى زيارة ولا تحدث بي عهداً ، ما اسرع ما نسيتني واني على ذلك لم انسك ، ولا يمكن ان انسلك . ألم بداري قبل ان يقبل الليل ، ثم تنصرف عنه وينظر فلا يرى شيئاً . ويتسمع فلا يسمع شيئاً . وينهض فيستأنف حياته كما تعودان يستأنفها كل يوم لا يلقي بالا الى ما راي ولا تلقى بالا الى ماسمع ، فاذا كان الغد جاء الطيف كما جاء امس وتحدث اليه بمثل ما تحدث به امس

وقد تكررت هذه الزيارة مرة ومرة ، حتى لم يشك في ان من الحق عليه ان يلم بهذا القبر وان يهدي اليه تحيته في طاقة من الزهر . وقد فعل ، فلم يكذب باغ القبر حتى راي صاحبه ولم يكذب يقوم على القبر مع صاحبه حتى اقبل صاحبهما الثالث . فلما انصرفوا عن القبر قص احدهم على صاحبه ما راي وما سمع . فاذا كل واحد منهما قد راي مثل ما راي ، وسمع مثل ما سمع ، وابطا مثل ما ابطا ، ثم اقبل على القبر كما اقبل عليه يحمل اليه التحية وطاقة من الزهر

اتراها ارادت ان تستبق بينهما المنافسة والخصام بعد موتها ، وان تضطرهم الى ان يحفظوا لها من الود مثل ما كانوا يظهرن لها قبل ان يموت ؟ ام تراها اضعفت احلام قد عبثت بنفوس هؤلاء النفر الثلاثة . ولكن كيف يتفق ان يلم الطيف بهم في يوم واحد ويتراعى لهم في صورة واحدة ، ويلقى اليهم حديثاً واحداً او يضرب لهم موعداً واحداً

قلت لصاحبي حين انتهى من حديثه الى هذه الاسئلة ، لا ادري ولا استطيع ان افتح عليك ، فسل من شئت من الجامعيين الذين يدرسون دقائق علم النفس فلعلك تجد عندهم غناء

الضعيف

لاتخدعي عنه ياسيدي انك تريه مكينا ركيئا، ورزينا رصينا
يسعى هادئا اذا سعى ويمشي مطمئنا اذا مشى ، ولكنك لم تريه
حين يأخذ المرح ويستخفه النشاط اذا خرج للرياضة فى
الصحراء مصبحا او ممسيا . ولوقد رأيته اذ ذاك لعلمت انه يحسن
الجرى ويجيد العدو ويتقن الوثوب فى الهواء والتلوى فى الفضاء ،
ولحيل اليك ان جسمه الضخم العريض القوى المتين لم يركب
كما ركبت اجسام الناس ، وانما وصلت اجزائه بلوالب تمتد ان
اراد لها امتداد ، او تنقيص ان اراد لها انقباضا ، وانك تريه معتدل
الحركة مقتصدا فيها، ان حرك رأسه كأنما شد عنقه من بين كتفيه
بأمراس الكتان الى صم الجندل كما يقول الشاعر القديم . بل هو اقدر
على أكثر من ذلك فهو مالك لاجزاء وجهه يحرك منها ما يشاء حين
يشاء ويسكن منها ما يشاء حين يشاء ويحركها كلها احيانا، اذا اراد
ان يسحر ويبهز او ان يرهب ويخيف ولو رأيته حين يستخفه
الطرب ويستهو به نعيم الحياة لرأيت رجلا لا يملك من امر نفسه
شيئا، وانما هو حركة متصلة مضطربة، لا حظ لها من وقار ولا نصيب
لها من اعتدال، كأنما فقدت هذه القوة الارادية التى تحرك الاجسام

بمقدار وتسكنها بمقدار وتلائم بين عواطف القلب وحركات الجسم ملائمة الذين لا تتسلط عليهم الفرائز وانما تدبر أمرهم العقول؟ وانك تسمعيه يتحدث فاذا صوت هادئ متزن ولفظ مطمئن مثبته ، وحكم يظهر فيه القصد وتشيع فيه الاستقامة ويأخذه الاعتدال من جميع اقطاره ، ولو قد سمعته حين يثيره الغضب او حين يزدنيه الخوف ، او حين يغلبه الرضى على امره ، لعرفت كيف يرتفع الصوت حتى يصم الاذان وكيف يضطرب اللفظ حتى لا يستقيم تأليفه على نحو من انحاء الكلام المألوف ، وكيف يختلط الحكم حتى لا تدركه العقول ولا تسيغه القلوب ، وانك ترين عليه زينة تأخذ الابصار وشارة تستهوى العقول .

ولو رأيت حين يتخفف ولا يتكلف ، لرأيت الاهمال الذى تقتحمه العيون والابتذال الذى تزور عنه النفوس ، وانما هي حياة الناس ياسيدتى تقوم على التكلف اكثر مما تقوم على الاسماح وتجري على الرياء اكثر مما تجرى على الاخلاص ، وتمضى على الكذب اكثر مما تمضى على الصدق ، وتعطى من الناس صوراً ليس بينها وبين حقائقهم سبب ، وتردد من اصوات الناس اصداء ليس بينها وبين حقائقهم سبب ، وتردد من اصوات الناس اصداء ليس بينها وبين نفوسهم صلة ، قد جرى فيها الخداع كما يجرى الماء فى القفن الرطب ، وسرى فيها النفاق كما تسرى النار فى الحطب الجزل ، انك تريه ياسيدتى يذهب ويجيء فترضين لانه انما يذهب ويجيء فى ثوبين خلع احدهما على نفسه وخلع الاخر منهما على جسمه . وهو كغيره من الناس يلبس هذين الثوبين حين يريد ان يفارق نفسه للقاء نظرائه ، ويخلع هذين الثوبين حين يريد ان يفارق نظرائه ليخلو لنفسه . وصدقينى ياسيدتى انى لم اخطئ حين شبهته منذ حين بالاوزة التى تعث فى مجتمع من الماء ، انك تريها من بعيد فيعجبك منظرها تطفو على الماء وقد بسطت جناحيها فى الماء مقبلة مدبرة وخافية ظاهرة ، وارتفاعها فى الجو طائفة مقارنة

فى الطيران تخفق بجناحيها خفقا لا يخلو من ظرف وتبعث صيحات
تؤذى الاذن ولكنها لاتخلو من فرح ومرح، وقد يروك شكلها حين
تطفئ على الماء وقد بسطت جناحيها ورفعت عنقها الطويل برأسها
الخفيف وعرضت للضوء والهواء صدرها الجميل . كل هذا يعجبك
ويخلبك ، وقد يروك ويروك فتسعين الى مجتمع الماء هادئة
مطمئنة ، تودين لو استطعت ان تبلى الشاطئ، وتقضى من الاوزة
غير بعيد وتديرى بينك وبينها بعض الحديث . ولكنك لاتلبثين
أن تذكرى ان حماقة الاوز قد ضربت بها الامثال منذ العصور
القديمة فى غير أمه من الامم وفى غير لغة من اللغات . واذا انت
تلقين على الاوزة الجميلة نظرة طويلة فيها كثير من حزن، وفيها
كثير من اشفاق ، وفيها كثير من ازدياء، لان طبيعتنا تنبؤ عن هذا
التناقض بين الظواهر التى تخيل اشياء كثيرة والدخائل التى لاتحقق
شيئا . وليس على صاحبنا بأس من ان يشبه الاوزة فى شكله
وعقله، لانه لم يخلق نفسه، ولم يلائم بين هذا الجسم الثقيل والعقل
الخفيف، وانما هى حكمة الله التى نفهم ايسرها احيانا ونعجز عن
فهم اعظمها فى اكثر الاحيان

وقد عرفت صاحبنا معرفة دقيقة متصلة منذ ايام الطفولة
والصبي، وفى ايام الشباب والكهولة، واستطعت أن اقطع بأن كل شئ
من حوله كان يهيئه ليكون أوزة ناطقة فقد نشأ فى أسرة موسرة
من أسر الريف . وكان عطف أبويه عليه شديدا . فقد كانا
يرفقان به مصباحا وممسيا، ويتعهدانه بالعطف واللفظ اثناء
النهار وزلفا من الليل ، وكانت أمه ترأى وتعطف عليه عطفًا خاصا
كما تعرف الام الجاهلة الغافلة كيف ترأى ابنها وتعطف عليه
وكان أخص مظاهر حبها له وبرها به عنايتها بطعامه فقد
كانت تصبغه بخير ما يصبح به أبناء الموسرين فى القرى من هذه
الالوان التى تلذ الافواه وتملا السطون وتشيع فى الاجسام
ضخامة وغلظا . ثم كان لا يعود اليها من لعبه أو من كتابه أو من

مدرسته الا وجد عندها طعاما تلقيه فى فمه او تدسه فى جيبه
او تضعه فى يده . فشأ شرها متها لك على الطعام ، وانفق صباحه
وشبابه يعلف فى اسرته كما يعلف الاوز فى تلك البيئات التى
تتخذ تنمية الاوز تجارة ومكسبا

وبمقدار ما كانت اسرته تعنى بجسمه فتسرف عليه فى المطعم
وتتألق له فى الملبس ، كانت هذه الاسرة ترفق به أشد الرفق فيما
يتصل بالدرس من قريب او بعيد فلم تكن تشق عليه فى الملاحظة
اذا عاد من المدرسة ، ولعلها كانت تضطره الى الاعراض عن القراءة
والمذاكرة ، فقد كانت تخاف عليه من ايسر الجهد وتكره له الانحاء
على الكتاب وتشفق على عينيه من ضوء المصباح . وكثيرا ما تقدم
أبوه الى معلمه فى الكتاب والى أساتذته فى المدرسة فى الايكلفوه
من الدرس شططا . فهو لا يهيا ليتخذ من العلم صناعه ولا من
المدرسة وسيلة الى كسب الحياة . وانما هو يذهب الى المدرسة كما
يذهب اليها اترابه من ابناء الاسر ليتعلم فيها ما يرتفع به عن الجهل
وما يميزه من اهل القرية التى يعيش فيها . ولكن الصبى كان
يحب ان يتعلم لارغبة فى العلم أو حرصا عليه ولكن عنادا لا بويه
هذين اللذين كانا يقترا على فى الدرس ويسرفان عليه فى
الطعام والشراب . فقد سار الصبى فى درسه سيرا قصيرا فلم
يكن متفوقا ، ولم يكن شديد الغباء ، وانما كان شيئا بين ذلك حتى اذا
أتم دراسته الثانوية رأى الحكومة تختار المتفوقين من اترابه فترسلهم
الى اوربا ليتعلموا الدرس ويعودوا بعد ذلك ليشغلوا مناصب الدولة
ويختلفوا الى المكاتب فى الدواوين . ورأى بعض الاسر الغنية ترسل
المقصرين من ابنائها عن نيل الشهادات المصرية الى اوربا لينالوا
الشهادات الاوروبية . ونظر فاذا اترابه الذين كانوا يتفوقون عليه
والذين كانوا لا يبلغون منزلته يسافرون الى اوربا . فلم لا يسافر
كما يسافرون ، ولم لا يعبر البحر كما يعبرونه؟ وليسوا اكثر منه
مالا ولا أبرع منه جمالا ولا أحسن منه شارة ولا أجمل منه زيا ولا

أرقى منه ذوقا فى اختيار ادوات الزينة التى يتجمل بها الشبان المترفون . ثم هو يلوى لسانه بالرطانة الاجنبية كما يلون بها السنتهم ثم هو يحسن التصرف فى أشياء لا يحسنون التصرف فيها . واذن فلم يتاح لهم السفر ويقضى عليه أن يكون من المتخلفين ولم يجد مشقة فى أن يظفر من أسرته بالاذن له فى هذا السفر الطويل . فقد مانعت الام وبكت وشكت ولكن الاب اجاب ابنه الى ما اراد راضيا عنه ، مفتبطا به ، فقد كان يحب ابنه اشد الحب ويعجب به اشد الاعجاب ويرى فى سفره الى بلاد الانجليز فخرا اى فخروا امتياز اى امتياز . وقد ذهب الفتى الى بلاد الانجليز واقام فيها ماشاء الله أن يقيم وعاد منها لم يتعلم شيئا الا التأنق والتحذق والبراعة فى لى اللسان حين يتكلم الانجليزية والعربية جميعا . والافتنان فى ارتضاع البيبة كما يرتضع الطفل ثدى امه

عاد من بلاد الانجليز لم يتعلم غير هذا شيئا وهو واثق مع ذلك انه قد تعلم كل شيء . وقد اتاح له من ظروف الحياة المصرية ومن جاهد ابيه ما وصل أسبابه باسباب الحكومة . فعمل فى ديوانه مترفا اشد الترف ، فارغا اشد الفراغ ، مشغولا بصغائر الامور مصروفا عن عظامها .

ثم كانت الحركة الوطنية واضطراب السياسة واختصاص الاحزاب وانقسام الناس بين هذه الاحزاب مؤيدين ومعارضين ومنتفعين من المعارضة والتأييد . ومنذ ذلك الوقت تولت الظروف الارتقاء بصاحبنا من منصب الى منصب ، ومن منزلة الى منزلة ، حتى هبى له من المكانة ما تعلمين . واغرب شيء فيه ما ترين من اجترائه على التحدث فى كل شيء والعجز عن ان يقول شيئا ، ومن براعته فى النزول بعظام الامور وجسام الشؤون الى حيث تصبح ضئيلة يسيرة مبتذلة ، يرتفع عن الحديث فيها من اتاح الله له

حظا من معرفة أو نصيبا من امتياز . وهو على ذلك منتفخ
منتفش ، يرى نفسه عظيما ، ويراه كثير من الناس عظيما ، فإذا
حققناه لم نجد وراء هذه العظمة شيئا لأنها عظمة منحولة مدخولة
لا تعتمد على شيء من شخص صاحبها يقدر ما تعتمد على الباطل
والغرور . وقد تسألين كيف ارتقت به هذه العظمة الكاذبة من
درجة الى درجة ، ومن مكانة الى مكانة ، ولكنى أرجو ان تكونى اقل
سداجة من هذا ياسيدتى . فليس ينبغى ان تسألى عن الضعفاء
والعاجزين كيف يرتفعون . فذلك ملائم لطبيعة الاشياء ، وإنما
ينبغى ان تسألى عن الأكفاء كيف يشبتون فى مواضعهم وكيف يتاح
لبعضهم ان يرقى الى شيء من امتياز المنصب وارتفاع المكانة
فذلك هو المخالف لطبيعة الاشياء ، المبين لمنطق الدنيا ، كما يقول كاتب
اديب من اصدقائنا

والشيء المحقق هو انى لم أرساحبنا قط مقدما على شيء أو
محجبا عن شيء ، أو مجادا لخصم أو مناظرا لصديق الا
هممت أن أقول له ما قال ابن شهيد لا وزته تلك الاندلسية فى
تلك القصة الطريفة التى جرت بينه وبين حمير الجن وبغالها :

يا أم خفيف ، بالذى جعل غداك ماء ، وحشا رأسك
هواء ، ألا أيما أفضل : الادب أم العقل ؟ قالت : بل العقل ، قال
ابن شهيد : هل تعرفين فى الخلائق أحمق من أوزة ، ودعبنى من
مثلهم فى الجبارى ؟ قالت : لا . قال ابن شهيد : فتطلبى عقل
التجربة ، اذ لا سبيل لك الى عقل الطبيعة ، فإذا أحرزت منه
نصيبا ، وبؤت منه بحظ فحينئذ ناظرى فى الادب

قالت السيدة متضاخكة : ليكن صاحبنا أوزة أو دجاجة أو ماشئت
من ذوات الاجنحة والريش ، ولكن حدثنى عن هذا البدع الذى أخذت
فيه منذ حين . فقد جعلت لأسالك عن أحد الا ضربت له من الحيوان
مثلا . قلت وأى بدع فى ذلك ياسيدتى إنما هو فن قديم

من فنون الادب . اليس العرب قد شبهوا الانسان بالحيوان منذ أول الدهر ! اليس الله عز وجل قد شبه بعض الناس بالكلب الذي ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، اليس الله عز وجل قد ضرب الحمار الذي تحمل عليه الاسفار مثلاً للذين حملوا النوراة ثم لم يحملوها . أو لست قد حدثتك انفا بقصة ابن شهيد مع اورثته تلك الاندلسية ، حين حاوره في روضة من رياض الجن بمحضر من زهير بن نمر وبمشهد من الحمير والبغال التي كانت تنشده اشعارها . فماتكرين من ذلك ، والله لم يخلق الاشياء عبثاً وانما جعل فيها لنا منافع ، ودعانا الى ان نعتبر بكل ما خلق من الحي والميت وأن نلتمس فيه الموعظة التي تبصر القلوب والحكمة التي تهدي العقول

قالت السيدة وقد ثابت الى الجذ وكانت أدبية أربية تحفظ الحديث وتقرأ القرآن: هذا حق ، وأقرأ ان شئت قول الله عز وجل في سورة النحل : والانعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم اجمعين »

الغنائم

- من اين اقبلت يا ابنتى !
- من حيث لا تبلغ الظنون ..
- ماذا تريدن يا ابنتى ؟
- أريد مالا تقدرين ..
- كيف تقولين يا ابنتى ...
- أقول مالا تصدقون !
- أسرفت فى الرمز يا ابنتى ..
- بل مالكم كيف تحكمون !

وينظر الشيخ حوله فلا يرى من يحاوره ، وينكر الشيخ نفسه
لولا شكوك تساوره ، فقد رأى شخصها الجميل ، تظله هذه
الفصون ، ولم يزل صوته الضئيل ، يثير فى نفسه الشجون ،
وكانت الشمس قد تولت ، كالأمل الخائب الكدوب ، وظلمة
الليل قد أظلمت ، كاليأس اذ يغمر القلوب
وقد لبث الشيخ مكانه قائما واجما ، يرفع رأسه الى السماء
حينما ، ويخفض رأسه الى الارض حينما آخر ، ويقلب طرقه فى
الفضاء بين ذلك ، يلتبس هذه الفتاة الانيقة الرشيقة ذات الوجه
النضر والقد المعتدل . هذه التى بدت له رائعة بارعة على انها

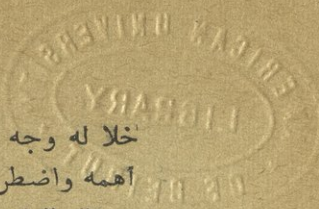
لم تتخذ زينة ولا حليا ، ولم تتخذ من الثياب ما تعودت الفتيات الحسان اتخاذه ، وانما بدت له ساحره باهر ، تحيط بها هالة من الفتنة الفاتنة ، على ما كان يسترجسها الغض البض من ثوب هو الى السداجة القروية ادنى منه الى تكلف المدن ، وهو الى البلى ادنى منه الى الجدة

فلما رآها انكرها ، ثم دار بينه وبينها هذا الحوار الذى ابتدء به هذا الحديث والذى لم يفهم منه شيئا ، والذى كان يريد ان يمضى فيه حتى يعلم من الفتاة علمها ويظهر على جلية أمرها ولكنه ينظر فلا يراها ، ويدعو فلا يسمعا ، ويبحث فلا يجدها فيلبث في مكانه حائرا مرتاعا ، يكذب عينه فيما رأت واذنه فيما سمعت لولا أن صورتها تلح على نفسه فتملأها جمالا وسجرا ، ولولا ان صوتها يلح على قلبه فيشيع فيه طربا حزينا

وقد طال وقوف الشيخ وطالت حيرته واخذت الظلمة تغمر الاشياء من حوله ، وكان خليقا ان ينسى نفسه في موقفه هذا النريب ، لولا أنه سمع ذلك لصوت الضئيل العذب يقول له : اسرع ايها الشيخ الى صلاتك فقد أوشكت ان تفوتك وأوشك المؤذن ان يدعو الى العشاء الثانية . لا تبحت عنى فلن ترانى من ليلتك هذه

ولم يكذ الشيخ يسمع هذا الصوت حتى ثاب الى نفسه وثابت نفسه اليه ، وذكر انه قطع حديثه مع الباشا فجأة ، وانصرف عنه عجلا ليشهد صلاة المغرب والعشاء مع جماعة الناس كما تعود ان يشهدا في مسجد القرية الذى يقوم في طرف من أطرافها غير بعيد من القصر ، وأنه ليسعى في طريقه الى المسجد واذا هذه الفتاة تتراءى له من بين هذه الشجرات التى تقوم عند اخر الحديقة وتمد أغصانها متكاثفة مختلطة ، كأنها تريد ان تتخذ منها للقصر ستارا جميلا صفيقا ، وقد أسرع الشيخ الى صلاته وهو يحدث نفسه بأنه سيؤديها منفردا وسيؤدى العشاء الثانية مع جماعة الناس ، ولكن الصوت الجميل الضل كان يتبعه قائلا له لا تذكرنى لاحد ، ولا تتحدث عنى الى احد

فانك ان فعلت لم تجن من ذلك الا شرا . ولا يستطيع الشيخ ان ينكر ان ظهور هذه الفتاة له واحتجابها عنه وتحدثها اليه وتشيعها له ، كل ذلك قد ملا قلبه فرقا ، لم يسكت عنه الا حين دخل المسجد واستقبل القبلة مقيما للصلاة ، ولو اطاع الشيخ نفسه لتحدث الى اصحابه بعد ان فرغوا من صلاة العشاء الاخرة بما رأى وما سمع ، ولكنه كان كلما هم بذلك أو بشيء منه رد نفسه عنه ردا عنيفا مخافة ان يظن الناس به الظنون من جهة ومخافة هذا النذير الذى القته الفتاة اليه من جهة اخرى وقد راح الشيخ الى اهله حين تقدم الليل ، وكانت نفسه تنازعه ان يتحدث اليهم ببعض ما رأى وما سمع ولكنه ردها الى الحزم وحملها على الصمت ، مخافة ان يظن اهله به الظنون وأن يتحقق هذا النذير الذى القته اليه الفتاة فاستقبل الليل كارها لهدوئه ، وطلب النوم جاهدا فلم يظفر به الا بعد انتظار طويل ولم ينعم به بريثا من الاحلام المزعجة والاطياف المروعة ، ولم يعرف الهدوء الا حين استقبل النهار المشرق واضطرب مع اهل القرية فيما تعود ان يضطرب معهم فيه من شئون الحياة . ولم يزر الباشا من يومه ذاك ، كأنه قدر أن هذه الفتاة ستعرض له بين تلك الشجرات مستظلة بتلك الفصوص المتكاثفة في طرف الحديقة مما يلي القرية . وقد شهد صلاة العشاءين مع اصحابه واستقبل ليلة هادئة ، واستقبل نهارا مشرقا هادئا ، حتى اذا ارتفع الضحى ، سعى الى القصر يريد أن يزور الباشا في النهار الواضح المبصر ، لا فى الاصيل الشاحب الذى يسعى الى الاظلام أو يسعى اليه الاظلام ، والنذى تعرض فيه الفتيات الحسان فى ظل الاغصان . ولكنه رأى الباشا مكتئبا مفرق النفس ، كان امرا ذا بال يهيمه ، ويصرفه عن ادارة الحديث مع جلسائه كما تعود ان يدير الاحاديث فى لباقته ورشاقتة ودكائه الحاد . وكان الشيخ اثرا عند الباشا ، محببا الى نفسه ، مشيرا عليه فيما يعرض له من الامر ، فلما رأى اكتئابه وابتئاس نفسه ، اطلال المقام ولم ينصرف مع الناس حين انصرفوا . وانما استأنى وتريث ، حتى اذا



خلا له وجه الباشا سأله مترفقا به عن هذا الامر العارض الذى
أهله واضطره الى ما هو فيه من هذا الحزن الكئيب

قال الباشا وعلى ثغره ابتسامة شاحبة وفي صوته تكسر حزين
ما أدري أحدثك بهذا الحديث ام أطويه عنك ، فانى انكره اشد
الانكار ، واكاد اخفيه على نفسى اشد الاخفاء . وقد هممت أن
اسافر الى القاهرة لارى الطبيب ، ثم بدالى فدعوت الطبيب الى
زيارتى ، وانى ان يتفق معى يومه اذا كان الغد ، والامد بيننا وبين
القاهرة غير بعيد ، واليوم يوم الخميس ، فليس على الطبيب
بأس ان يتفق معنا يومه غدا

قال الشيخ : فانى لم أفهم عنك ولم أتبين هذه الصلة الغريبة
بين ما يظهر عليك من حزن ، وبين دعوتك للطبيب الى ان يتفق معك
ساعات من نهار

قال الباشا : ألم أقل لك انى انكر نفسى وأخشى ان يكون قد
الم بى بعض العلة ، فقد رايت امس ما روعنى ، وسمعت امس
ما اخافنى ، وانى لاستحيى من نفسى حين افكر فيما سمعت وما
رأيت . وانى لاستحيى منك ان احدثك بما سمعت وما رأيت

قال الشيخ وهو مهتم يتكلف الابتسام ، وصوته مضطرب
يتكلف الثبات : ماذا سمعت وماذا رايت ؟ قال الباشا فى صوت
يكاد يبين عن الجزع : سمعت صوتا لم أسمع قط أعذب منه
.. ورأيت شخصا لم ار قط أجمل منه . ثم انقطع عنى
الصوت ، واحتجب عنى الشخص وترك فى نفسى ما ترى من حزن
واكتئاب . وقد ذكر الشيخ ما رأى ، وذكر ما سمع ، وهم ان
يتحدث الى الباشا يمثل ما تحدث به الباشا اليه ، ولكنه خاف
النذير فآثر الصمت . ومضى الباشا فى حديثه فقال : كان ذلك
حين آذنت الشمس بالغروب وحين اخذت ظلمة الليل تغزو
الفضاء ، وقد كنت أسمى فى هذه الحديقة فما راعنى الا فتاة
بارعة الجمال ، رائعة القوام ، تنظر الى بطرف نافذ كأنه السهم

.. فأسأله من هي ومن اين اقبلت ! والى اين تريد وماذا تبغى ! فلا اسمع منها الا اجوبة غامضة لا افهم منها شيئا ، فهي مقبلة من حيث لا اظن ، وقاصدة الى حيث لا اقدر ، ومريدة مالا استطيع ، وقائلة مالا افهم . واريء ان استوضحها ، واذا شخصها يستخفى منى ، واذا صوتها ينأى عنى شيئا فشيئا وهو يقول لابد مما ليس منه بد ، خير لك ان تقدم على الامر طائعا راضيا من ان تقدم عليه كارها مضطرا . وقد سمعت هذه الكلمات الاخيرة يلتقيها انى صوت غريب كأنه الصدى

ولم يشك الشيخ حين سمع حديث الباشا فى ان صاحبته تلك التى عرضت له فى طرف من اطراف الحديقة هى التى عرضت لصاحب القصر ، وهى التى تحدثت اليه ، ولكنه على ذلك لم يفيض الى الباشا بذات نفسه وانما قال له متضاحا لو علمت انك تسمع لى لطلبت اليك ان تفعل كما افعل ، وان تقرا اجزاء من القرآن فى كل يوم تذكر الله بتلاوتها ، فان ذكر الله يملأ القلوب امانا واطمئنانا ويرد عن النفوس ما يروعها ويؤذيها من الخوف والريب ، وقد احسنت اذ دعوت الطبيب وما ارى الا ان مقدمه سينفعنى فاستشيره فى بعض ما اجد من الضعف وان كنت لا انتظر منه خيرا كثيرا ، فان هذا الضعف الذى اجد له لادواء له لانه ضعف شيخوخة والهرم

وتنقل الرجالان فى احاديث شيرة مختلفة اشد الاختلاف يسلى كل منهما بهذا التنقل نفسه وصاحبه عن هذه الصورة الملحة ، وهذا الصوت المتصل ، وهذا النذير القامض الغريب . وقد حرص الشيخ على ان ينصرف عن القصر قبيل ان تصلى العصر حتى لا يرى ذلك لشخص ، ولا يسمع ذلك لصوت ولكنه يقبل الى المسجد حين يدعو المؤذن الى صلاة المغرب ولا يكاد يبلغ الباب حتى يرى شخصين غريبين قد قام كل واحد منهما على جانب من جانبيه . وينظر الشيخ فى شيء

من الروح الى أحد هذين الشخصين، فلا يشك في انه يرى الفتاة التي رآها في طرف من اطراف الحديقة ، وينظر الى الشخص الآخر فاذا هو صورة مطابقة للشخص الاول كأنما كل واحد من هذين الشخصين تمثال لصاحبه يطابقه أشد المطابقة ويصوره أدق التصوير، ويرى الشيخ على ثغر كل من هذين الشخصين ابتسامة حازمة صارمة ولكن فيها عذوبة تنفذ الى قلبه فتملأه أمنا وروحا . وقد رفع الشيخ صوته حين رأى هذين الشخصين يتلاوة ما تيسر من القرآن، ولكنه يسمع الصوتين يتلوان معه ما كان يتلو ويجد تلك العذوبة التي وجدها حين كانت الفتاة تتحدث اليه وتحاوره في ظل تلك الفصون ، فيسرع الى المسجد مخافة الفتنة وينغمس في جماعة الناس ، وقد أشفق على نفسه من شر عظيم

ولست في حاجة الى ان اصور ما ملاً قلب الشيخ من روع وروعة، ومن خوف ومن، ومن يأس ورجاء ، فقد كان يجب ان يرى هذه الصورة ويشفق من رؤيتها ، وقد كان يرجو ان يسمع هذا الصوت ويخاف من سماعه ، وقد جعل يحيا حياة مضطربة بين هذه العواطف المتناقضة . واقبل الطبيب فسمع من الباشا وتحدث اليه وامتنحه ولكنه لم يغن عنه شيئا . وما كان الطبيب ليغنى عنهما ولا عن غيرهما شيئا ، فما هي الا ايام حتى كثر هذا الشخص او كثر صور هذا الشخص في القرية وجعل كل واحد من اهل القرية يراه حين يغدو الى عمله مع الفجر وحين يروح الى اهله مع الاصيل . وجعل كل واحد من اهل القرية يسمع منه ويتحدث اليه مصباحا وممسيا . يرتاع لمنظره وصوته أول الامر ، ثم يأنف منظره ويطمئن انى صوته، ويشتاق الى ان يراه بن الفجر والاصيل ، ويشتاق الى ان يسمعه في كل ساعة من ساعات الليل والنهار

وقد جعل أهل القرية يتحدثون اذا التقوا عن هؤلاء
الفتيات الحسان اللاتي يعرضن لهم في الغلس حين يطلق النهار
سهمه المضى فيشق به ظلمات الليل ، وفي الاصيل حين يطلق
الليل سهمه المظلم فيبدد به ضوء النهار . وجعل أهل القرية
يتحدثون عن هؤلاء الفتيات الحسان المطمعات المغريات اللاتي
يبدون لهم ويدنون منهم ويدعونهم اليهن في شيء من الفتنة ولكنها
فتنة نقية لا اثم فيها ولا حرج ، ولا لوم فيها ولا تشريب
وجعل أهل القرية يسألون الشيخ عن هذا الحدث الغريب
الذي ألم بقريتهم منذ حين فغير حياة الناس فيها تغيرا شديدا ،
وانتارفي قلوبهم آمالا لا حد لها ، وآسالا لا حد له ، وغير رأى بعضهم
في بعض ، وغير رأيهم جميعا في الباشا هذا الذي كانوا يؤمنون
له ويدعون لسلطانه ويبرون طاعته عليهم حقا . ويرون انهم
ملك له كما ان ارضه ملك له . الا انهم يحيون والارض لا تحيا
ويرون انهم ملك له كما ان ماشيته ملك له ، الا انهم يعقلون
وينطقون والماشية لا تعقل ولا تنطق ، تغير رأيهم هذا في الباشا
فأصبحوا يرونه واحدا منهم ، لا يمتاز من بينهم بشيء ، فهو
رجل من الرجال يذهب ويجيء ويأكل الطعام ويمشي في الاسواق
ويتكلم بالصواب حينما وبالخطأ احيانا ، واذن فلم يستأثر من
دونهم بهذا النعيم ! ولم يستطيل عليهم بهذا السلطان ، ولم يسعه
حتى تبطره السعادة ويشقونهم حتى يضطربهم الشقاء الى
اليأس والقنوط ! ولم تبسم الحياة له حتى يضيق بهذا
الابتسام ، وتعبس الحياة لهم حتى يهلكهم هذا العبوس ، ولم
يكسل هو حتى يضطربه الكسل الى المرض . ويعملون هم حتى
يضطربهم العمل الى الموت

شاعت هذه الاحاديث بين أهل القرية فامتلات بها مجالسهم
حين يجتمع بعضهم الى بعض وامتلات بها بيوتهم حين يخلو
كل منهم الى أهله وذوى قرابته ، وارتقت الى الباشا فصادفته
قلقا قد ملا قلبه الخوف والاضطراب ، واذا هو يؤثر أن
يترك القرية الى القاهرة . ليتحدث عن محنته هذه في قريته

الى بعض اولى الراى من اصحابه ولا يكاد يبلغ القاهرة ويفضى
بذات نفسه الى بعض نظرائه حتى يسمع منه حديثا ليس
اقل من حديثه خطرا ، ولايسر منه شيئا ، فاهل القرى كلهم يتحدث
هذا الحديث ، واهل المصانع كلهم يتحدث هذا الحديث ،
والعاملون فى الدواوين والمصارف والشركات ، والعاملون فى الشوارع
والطرق والمواصلات كلهم يتحدث هذا الحديث قد اختلط الامر
وعظم الشك ، وشاع فى النفوس امل لاحد له ، وشاع
فى النفوس يأس لاحد له ، وشاع فى الجو كله سحاب لا يدري عما
ينجلى ، أمن أمن ورخاء ، ام عن بؤس وشقاء . وكان عدد
السكان فى مصر ثمانية عشر من الملايين فأصبح عددهم ستة
وثلاثين مليونا ، لان كل فرد من افراد هؤلاء المصريين قد وكلت
به فتاة حسناء حازمة صارمة باسمه تبعث ابتساماتها فى القلوب
أملا مخيفا . وكره الباشا أن يعود الى قريته لانه كره فتاته
تلك الحسنة فى حقيقته تلك الغناء . ولكنه خلا الى نفسه
ذات يوم فى مكتبه المطل على النيل واراد أن يأخذ فى بعض
عمله واذا هو يحس حركة فاذا التفت رأى فتاته الحسنة وعلى
ثغرها ابتسامة ساحرة وهى تقول فى صوتها ذاك الضئيل
الجميل لابد مما ليس منه بد أقدم طائعا راضيا ، فذلك خير
من أن تقدم كارها مضطرا

وقد كتب الباشا الى الشيخ يدعوهُ الى القاهرة ليشاوره فى
بعض ما يمكن أن يصنع ليرضى الساخط ، ويأمل القاطن ، ويأمن
الخائف ، ويعمل الكسول ، محبا للعمل لا زاهدا فيه . قال
الباشا للشيخ حين خلا اليه : ألا تبئنى عن هذا البلاء العظيم
الذى نمتحن به فى هذه الايام الشداد . قال الشيخ مبتسما :
لاتسلنى أنا عن هذا البلاء وسل عنه فتاة من هؤلاء الفتيات اللاتي
ملأن علينا أرض مصر جمالا وأملا وخوفا وأشفاقا . قال
الباشا : ومن عسى أن تكون هؤلاء الفتيات ! قال الشيخ : لا
ادرى ولكننى كلما سألت واحدة منهن عن اسمها رفعت
كتفها وابتسمت عن ثغر جميل وقالت ساخرة : تريد أن
تعرف اسمى فاسمى هو « العدالة الاجتماعية » ..

الحرق الطامع

أنكره ياسيدتى ان شئت أو أعرفه . فكلا الأمرين منك
سائق ، وكلا الأمرين منك مقبول ، وان تنكره فقد أنكرت نعم شاعرها
وشاعر الحجاز عمر بن أبى ربيعة ، وان تعرفه فقد عرفت اسماء
شاعرها وشاعر الحجاز عمر بن أبى ربيعة ، وانت ياسيدتى أدبية
أربية تذكرين من غير شك ما تحدث به فتى قریش عن
صاحبته حيث يقول :

قفي فانظري أسماء هل تعرفينه أهذا المغيرى الذى كُنْ يذكر
أهذا الذى أطريت نعتا فلم أكن وعيشك أنساه الى يوم أقبر
فقلت نعم لاشك غير لونه سرى الليل يحبى نصه واتهجر
لئن كان آياه فقد حل بعدنا عن العهد والانسان قد يتغير
رأت زجلا ما اذا الشمس عارضت فيمضى واما بالعشى فيخمر
أخا سفر جواب أرض تقاذفت به فلوات فهو أشعث أغبر
قليل على ظهر المطية ظله سوى ما نفى عنه الرداء المحبر
واعجبها من عيشها ظل غرفة وريان ملتف الحسادق أخضر

فأى المذهبين تختارين ؟ مذهب نعم هذه التى أنكرت الشاعر
وجعلت تسأل عنه فى سحره يمازجها العطف . أم مذهب اسماء

التي عرفته وجعلت تحدث منه في عطف يمازجه الاعجاب ؟ واني
لمسرف حين القى عليك هذه الاسئلة واخبرك بين هذين المذهبين
فاني لم اسمع منك منذ ساعة الا انكارا لصاحبنا هذا المسكين
ونعيا عليه ، ترينه كثير الكلام وقد كان كثير الصمت ، وترينه
كثير الحركة وقد كان صاحب رزانة ووقار ، وترينه مقصرا في
ذات الصديق وقد كان من اشد الناس وفاء للصديق ، وترينه
مستكبرا مستعليا وقد كان متواضعا غاليا في التواضع وترينه
يقول غير الحق وقد كان لا يؤثر على الحق شيئا . وترينه مداورا
مناورا وقد كان ابغض الناس للمداورة وازهدهم في المناورة
واحرصهم على أن يسلك الى ما يريد طريقا مستقيمة غير
منحرفة ، ومستوية غير ملتوية ، وواضحة لا يحتاج سالكها الى الهدى
والاعلام . وترينه حذرا هيبا ومتحفظا محتاطا وقد كان
جريئا مقداما ، لا يخاف شيئا ولا يخاف أحدا ولا يعادل عن
الصراحة الجلية الى الاشارة القامضة او التلميح الذي يلبس
فيه الحق بالباطل والصواب بالخطأ والصحيح بالمحال
وقد كنت تعرفين وجهه مشرقا صافي الاشرار مبتهجا نقي
الابتهاج مبتسما حلوا الابتسام ، فاصبحت ترين وجهه مظلم
تمام الاظلام تفشاه بين حين وحين سحابة رقيقة ضئيلة من اشراق
طاريء لا يشبت أن تتمحى آيته ويعفى الاظلام على اثاره واصبحت
ترين في عينيه حزنا ملحاحا كما يصور نفسا مكلومة حزينة
كانما يغمرها ندم متصل لا تكاد تخلص منه الا لتعود اليه .
واصبحت ترين على ثغره ابتسامة تمر سريعة بين حين وحين
تحاول ان تثبت فلا تستطيع ، كأنما وكل بها من أعماق الضمير
حرس يابون عليها أن تثبت أو تستقر . وقد ترين على ثغره
ابتسامة تقيم فتطيل الاقامة ولكنها ابتسامة شفاقة لا تشف
عن نفس مبتهجة او قلب مطمئن او ضمير راض وانما تشف
عن كآبة وسأم وقلق ، هي ابتسامة مجلوبة قد تعلم صاحبنا ان

يضعها على ثغره وان ينزعها عنه كما يضع صاحب العمامة
أو الطربوش عمامته أو طربوشه على رأسه . متى شاء وينزعها
متى شاء . ترين أشياء كثيرة تنكرينها لانك لم تعهديها من قبل
وتلتسمين أشياء كثيرة فلا تجدينها وقد كنت لاترين غيرها
من قبل وأنت من أجل ذلك تنكرين فتسرفين في الانكار
وتلومين فتفرقين في اللوم . وليست الى جانبك اسماء
توضح لك الغامض وتجلو لك الخفى وتقص عليك من أمر
صاحبنا ماتجهلين ، والانسان قد يتغير كما يقول عمر بن أبي ربيعة .
وما اكثر الأشياء التى تغير الناس فتحولهم عن العهد وتنقلهم من
طور الى طور وتمحو منهم خصالا كان الاصدقاء يعرفونها
ويألفونها ويكلفون بها ، وتمحو مكانها خصالا اخرى ليس للاصدقاء
بها عهد وليس من شأنها ان تحسن في نفس الصديق . وقد
نبت عين نعم عن عمر لانها :

رأت رجلا جواب ارض نقاذفت به فلوات فهو أشعث أغبر

قد اكثر السفر والح فيسه يسرى في الليل ويهجر في النهار
فادركه ما يدرك امثاله من الجهد والشعث . وجعلت اسماء تبين
ذلك لصاحبته في عطف واعجاب . اما صاحبنا فلم يسر في الليل
ولم يهجر في النهار ولم يدرك ما يدرك المسافرين من الجهد
والشعث ، وانما ادركه شيء اخر هو الذى تسألين عنه فلا تهتدين
اليه . وكيف تعرفينه او تهتدين اليه وانت مشغولة بحياته هذه
الناعمة في قصره هذا الانيق ، ومن حوله جنبه هذه ذات الاشجار
الباسقة والاغصان المتكاثفة وذات الزهر النضر والعشب الجميل
ومع ذلك فلصاحبنا قصة رائعة شائقة لو عرفتها لرحمته وعطف
عليه ، وله حديث رائع لو سمعته لمنحته شيئا غير قليل من الرثاء
والاشفاق ومستسألينى من غير شك أن اقص عليك قصته
وأبنيك بجليته . فأنت كغيرك من السيدات تمتازين بهذه
الخصال التى تملأ القلوب لكن جبا ومنكن خوفا وبكن اعجابا .

فيك رحمة لاحد لها وفيك قسوة لاحد لها . وفيك رغبة في الاستطلاع لا تعرف لنفسها حدا تنتهي اليه ، ولست ارى بأسا من ان أقص عليك القصص وانبك بالحديث . ولكنني أخشى الاتصديق ما سألقى اليك من قول .

فقصة صاحبنا غريبة حقا . لو انها قصت على الناس في الدهر القديم لصدقوها ولاطمأنوا اليها ، لان عقول الناس في الدهر القديم كانت نقية لم تكدرها الحضارة ، وكانت قوية لم يصفعها العلم . فأما في هذا العصر الذي نعيش فيه فقد كثرت الاعاجيب التي ترى وتسمع وتحس حتى اصبح الناس لا يصدقون الاعاجيب التي تقص عليهم الا اذا رأوها أو سمعوها أو أحسوها . وقد حاولت أن ارى اعجوبة صاحبى بنفسى فلم افلح ، وقد كررت المحاولة مرة ومرة منذ حدثنى بقصته فلم أبلغ من ذلك شيئا . حاولت ذلك معه وحاولت ذلك منفردا فلم أظفر الا بالاخفاق ان كان الاخفاق شيئا يمكن ان يظفر به الناس ، وأنا مع ذلك اصدق القصة ولا انكرها ، لان صاحبى هو الذى قصها على ولانه لم يعودنى أن يحدثنى بغير الحق ، ولانه قص على قصته أثر خروجه منها وقبل أن تظهر عليه هذه الخصال التي تنكرينها ، ولان عقلى هد هذا كله مستعد لتصديق مثل هذه القصص لاني عاشت القدماء حتى اصبحت واحدا منهم . فعقلى تقى لم تكدره الحضارة التي لا آخذ منها كما تعلمين الا بمقدار ، وعقلى قوى لم يضعفه العلم الذى ليس لى منه كما تعلمين حظ قليل أو كثير . .

وكان بدء ما ألم بصاحبى من الخطب انه خرج ذات يوم مع الصبح يلتمس الرياضة ويسلى عن نفسه بعض الهم . فترك المدينة وامعن في الصحراء يمضى امامه هادئا مطمئنا ، مستمتعا بهذا الحر الهادى الذى تشعه الشمس حين تصحو وتصفو في فصل الشتاء . . ولصاحبى عهد بالادب القديم فقد جعل يدير

في نفسه بعض ما حفظ من شعر القدماء ذاك الذي يصور
الصحراء وما فيها من وهادونجاد وما يضطرب فيها من
حيوان وما يترقرق في جوها من سراب . وقد مضى في رياضته
تلك وقتا لا يعرف أطال أم قصر ، لانه نسى نفسه . وامتزج بما حوله
ولكنه تنبه فجأة وقد فقد حر الشمس ، وينظر فاذا سحبا
متكاثفة تأتي من الشمال بطيئة ثقيلة يزحم بعضها بعضا وقد
هم أن يرجع ولكنه يرى برقًا يخطف ويسمع رعدا يقصف ثم
لا يعرف من امر نفسه شيئا . وانما هو شعور غريب غامض
أشبه شيء بشعور النائم حين يداعبه حلم لذيذ . فهو يرى
كان هذا البرق الذي كان يخطف قد خطفه هو ، فرفعه في الجو
رفعا سريعا رشيقا حتى انتهى به الى شيء يشبه أن يكون فراشا
موطا وثيرا . وهو يحس كأن هذا الفراش يسعى به سعيا
رقيقا ولكنه سريع يذكره بعض ما كان يجد حين كان النوم يداعبه
وهو في مضجعه من السفينة والجو صفو والبحر هاديء
والسفينة تجري في سمر تعينها عليه ريح رخاء . ثم يحس كأن
سريره ذاك الساعي في الجو قد استقر على مكان ثابت مطمئن
وكان صورا غريبة تشبه الناس ولا تشبههم قد حفت به فأجلسته
وجعلت تتحدث اليه بلغة غريبة يفهم معانيها ولا يحقق الفاظها .
ولكنه يؤكد انها ليست اللغة العربية التي يتكلمها عامة وقته
وليست اللغة الفرنسية التي يتكلمها بين حين وحين .
وليست لغة من هذه اللغات التي يسمع الناس يتحدثونها من حوله
فيفهمها قليلا أو كثيرا ، وانما هي لغة غريبة حقا ان امكن أن تشبه
بشيء فقد تشبه بما يأتلف من هفيف النسيم وحفيف الأغصان
وخرير الماء وغناء الطير ، وهو مع ذلك يفهم هذه اللغة حق الفهم
لا يجد في ذلك مشقة ولا عناء كأنما تبلغ الفاظها العربية قلبه
وعقله ، فتستقر فيهما واضحة جلية دون أن تمر بأذنيه ، ودون
أن يحتاج لفهمها الى قليل أو كثير من التفكير . وقد حفظ

صاحبى بعض ما استقر فى نفسه من معانى هذه الالفاظ التى كانت تساق اليه أو تلقى فى نفسه اللقاء . فقد ألقى فى نفسه أنه قد اختطف من وطنه اختطافا ونقل الى الوطن السعيد الذى لايلغى الناس لانهم لايجدون سبيلا اليه والذى لايستطيع الناس أن يحتملوا الحياة الطويلة فيه لانهم اضعف من أن يثبتوا لها فيه من حقائق الاشياء . وأول حقيقة عرضت عليه من حقائق الاشياء هذه فرآها رأى العين ، ولو اراد لتحدث اليها وسمع منها ولكنه لم يحتج الى ذلك لانها سعت اليه فى خفة ورشاقة فقبلت بين عينيه ، ولم تكـد تفرغ من قبلتها حتى ملأت قلبه حبا لها وايمانا بها وطمئنانا اليها . أقول أول حقيقة من حقائق الاشياء هذه هى النجح . النجح الذى يبلغ الآمال ويقضى الآراب ويرضى الحاجة الى ارتفاع المنزلة وعلو المكنة ، ويرضى الحاجة الى بسطة اليد وامتداد السلطان ، ويرضى الحاجة الى الامتياز والتفوق ، والى الاستعلاء والتغلب ، والنجح الذى يعيش الناس له ويجدون فى طلبه ويكدون فى التماسه ولكنهم لايلغونه الا ليردوا عنه ولا يظفرون به الا ليصد عنهم لانهم لا يعرفون له حقه ولا يلمسونه من مظنه ولا يسلكون اليه الطرق التى تمكنهم منه وتسلطهم عليه . النجح الذى يطلبه الناس بما ورثوا من أخلاق وبما ألفوا من عادات وبما حفظوا من تقاليد . يطلبونه من طريق الصدق والوفاء ، ويطلبونه من طريق النصح والاخلاص ، ويطلبونه من طريق العلم والمعرفة ، ويطلبونه من طريق الجهد والمشقة ، ويطلبونه من طريق العمل المتصل والاجتهاد المنهك للقوى المقصر للاعمار ، ويطلبونه من هذه الطرق فلا يصلون اليه . لانها طرق قديمة قد ذهبت معالمها واصبح سلوكها حمقا والسعى فيها جورا عن القصد وانحرافا عن الجادة وتكلفا لما لايفيد .

ولو انهم سلكوا اليه طرقه الطبيعية التى لا تؤدى الا اليه

والتي لا يستطيع سالكها ان يرجع ادراجها ، وانما هو بمضى
من فوز الى فوز ومن ظفر الى ظفر . ولو انهم سلكوا اليه
هذه الطرق بلغوه في غير جهد ولا خدوا بحظهم منه في غير عناء
وهم صاحبى ان يسأل عن هذه الطرق الطبيعية ولكنه لم
يحتج الى السؤال ، فقد القى في نفسه انها نقائص الطرق المألوفة
فهى لا تحب صدقا ولا وفاء ، وهى لا ترضى عن النصح ولا الاخلاص ،
وهى لا تستقيم للعلم والمعرفة وهى لا تحتمل الجد والكد وهى
لا تطيق العمل والاجتهاد ، وانما هى تحب نقائص هذه الخصال
جميعا . وهم صاحبى ان يسأل وكيف التخلص من الاخلاق
المألوفة والعادات الموروثة والتقاليد المحفوظة ؟ ولكنه لم يحتج الى
ان يسأل هذا السؤال . فقد القى في نفسه ان شقاء الناس لا ياتيهم
من انهم لا يقدرّون على الاحتفاظ بخصال الخير او ما يسمى خصال
الخير . وانما يأتىهم من انهم لا يقدرّون على ان يتخلصوا من
خصال الخير هذه . وانما هم دائما أشبه بالكرات تتقاذفها
الفضائل والردائل أو ما يسمى الفضائل والردائل . ولو انهم
خلصوا للفضائل لسعدوا لانهم يستريحون الى اليأس . ولو انهم
خلصوا للردائل لسعدوا لانهم يلبغون من الحياة الدنيا كل ما
يريدون وشك صاحبى غير طويل . ثم هم ان يسأل كيف
السبيل الى ان يخلص الانسان من الفضائل ويبيع نفسه
للسيطان ولكنه لم يحتج الى ان يسأل هذا السؤال فقد
قدمت اليه كأس صغيرة جميلة فيها شراب كدر اللون . وقيل له :
احس هذه الكأس حسوا فانك ان تبت على اخرها انسلت من
الخير كما تنسل الشعرة من العجين وانحطت عنك اثقاله كما
تنحط اثقال النهار عن يشمله نوم الليل . قال صاحبى وقد
شربت هذه الكأس في مهل فكنت كأنما أشرب نارا تحرق
جوفى تحريقا ، ولكنى كنت اجعل هذه النار المحرقة ، لذة لا يستطيع
ان اصورها ، وروحا لا درى لبها صفة ، فلما فرغت من شرب الكأس

سمعت غناء لم اسمع اجمل منه قط ولم اسمع اشبع منه قط .
ولست أدري وما اظن احسب درى كيف يجتمع الجمال الرائع
والقبح المروع فى صوت واحد . ولكننى سمعت هذا الصوت
ثم انسيت نفسى ، ثم افيق واذا انا فى مكانى ذلك من الصحراء
ولكن لا ارى الشمس ولا احس حرها ولا ارى السحب المتكاثفة
تسعى من الشمال بطيئة متناقلة ، ولا ارى برقاً خاطفاً ولا اسمع
وعداً قاصفاً وانما ارى ليلاً مظلماً قد اطبق على الصحراء
اطباقاً واضطربت فيه اشعة ضئيلة تأتي من هذه المصاييح
التي زين الله بها السماء الدنيا . وقد عدت الى المدينة بعد جهدهم
والحمد لله على ان اهلى لم يكونوا فى المدينة وانما كانوا فى
الريف . ولو قد رحت اليهم آخر الليل مجهوداً مكثوداً اشعث
اغبر ، طائر اللب مغرق النفس ، لانكرونى اشد الانكار . ولكن
بينهم وبينى حساب عسير لست أدري كيف اخلص منه .
ثم اطرق صاحبى اطراقة طويلة عميقة رفع رأسه بعدها
الى وهو يقول : « وصدقنى انى انكر نفسى اشد الانكار منذ
تلك الرحلة القريبه . ويخيل الى انى لا احيا مع الناس ، وانما انا
فى حلم متصل ، ولغريب انى لم أكد استقبل النهار واتقدم فيه
حتى دعيت الى شىء ارجو ان يكون وراءه النجى »
وانت بعد ذلك يا سيدتى تعرفين من أمر صاحبتنا مثل
ما أعرف قالت السيدة وكانت ادبية اريية : « فاحذر ان تتعرض
لهذا البرق الخاطف فانى احب ان اراك دائماً كما انت » . قال
محدثها « هيهات ياسيدتى انا اثقصل وزنا من ان تخطفنى
البروق »

حديث الفيلسوف

لا أريد أن اسميه لاني لا أريد أن يعرفه الناس ، وحسبي انه
سيعرف نفسه . ولو استطعت أن أحفيه على نفسه لفعلت فانا أحبه
أشد الحب ، وأثره أعظم الاثارة وأكره أن يأتيه من نحوى أيسر
الجهد وأهون العناء وأقل الأذى . وأرى اني لا أتكلف له ذلك ولا
أتصنعه وانما هو حق الصديق على الصديق ودين الخليل عند
ال خليل . ومالي لا أرى له هذا الحق ولا أعترف له بهذا الدين وقد
استقبلنا الصبا رفيقين واستقبلنا انساب زميلين واستقبلنا الكهولة
صديقين . . لم تستطع حوادث الايام على كثرتها واختلافها ان
تثير بيننا ايسر الخلاف فضلا عن ان تفرق بيننا في الاراء والاهواء
نعم لقد استقبلنا الصبا رفيقين فجلسنا معا على حصير
الكتاب ، واختلفنا معا بين يدي سيدنا لا يكاد احدا يفرغ من
تلاوة ما حفظ من القرآن حتى يقوم الاخر مقامه ويتلو مثل ماتلا
ثم تلقى بعد ذلك في مجلسنا ذلك في ركن من اركان الكتاب
فتندكر ماسمعنا من الفاظ اللوم والتشجيع التي كان يسوقها
الينا سيدنا في صوت يغلظ حيناً حتى كأنه الرعد ويرق حيناً حتى

كأنه النسيم ، وقلدنا هذه الحركات الطريفة التى كان يأتيها باحدى يديه ليحدث بها صوتا متلاحقا سريعا يحثنا به على ان نكرر التلاوة كرا ليتبين مقدار حفظنا للقرآن حتى اذا صليت العصر تركنا الكتاب غير ضيقين به ولا اسفين على تركه ، وانما نحن نتركه مفكرين فى العودة اليه اذا كان الغد ، ونتركه مبتهجين بانصرافنا عنه الى هذا اللعب الذى سنستأنفه فى زاوية من زوايا الدار أو فى ناحية ما على شاطئ القناة

نعم واستقبلنا الشباب زميلين نختلف الى مجالس العلم فى الازهر الشريف نجد حين نستعد للدرس وحين نسمعه وحين نجادل كل الاساتذة فيه ، ونلهو حين نفرغ من ذلك وحين نأخذ فى اللعب بأساتذتنا وزملائنا وما كنا نرى ونسمع مما كانوا يعملون ويقولون . لا أذكر ولا أراه يذكراننا اختلفنا يوما ما فى أمر دى خطر ، وانما كنا متفقين دائما ومؤلفين دائما لانتكلف اتفاقا ولا ائتلافا ، وانما تجرى أمورنا هينة لينة ، وتمضى الحياة بنا على رسلها رفيقة رفيقة ، حتى لقد كنا نرى ما يثور بين الاصدقاء والزملاء من هذا الخلاف العارض الذى يباعد بينهم من حين الى حين فنتكلف الضيق بحياتنا هذه التى لا تعرف خلافا ولا افتراقا فى الرأى . ثم لانلبث ان نشوب الى الضحك والابتهاج والرضى بحياتنا هذه الراضية المطمئنة

وقد فرقت حوادث الايام بين شخصينا أعواما طويلا او قصارا ولكنها لم تستطع ان تفرق بين نفوسنا وضمائرنا ولا ان تخالف بين اهوائنا واراتنا ، وانما لبثنا متفقين على البعد كما كنا متفقين على القرب ، واتصلت بيننا رسائل مازلنا نعود اليها بين حين وحين كلما كلفتنا الايام من أمرنا شططا ، ثم التقينا بعد الفرقة وتدابنا بعد التنائي واستأنفنا فى حياة الرجال ماضت عليه أمورنا فى حياة الصبية والشباب من هذا الود النقى والاخاء الرضى والتعاون على البر والمعروف

وليست حياة الناس تخلو مما يؤذى ولا هى تبرا مما يسوء ، وليست حياة الناس تخلو من هذه الخصومات التى تفسد عليهم امرهم احيانا ، وتمنعهم القوة والايد وحب الجهاد والكفاح احيانا . وقد عرض لكل واحد منا حظه من هذا كله ولكن الغريب أن شيئا من ذلك لم ينل أحدا من قبل صاحبه وانما كان هذا ينالنا من قبل قوم آخرين ، فكنا نتعاون على احتمال الشر ودفع المكروه . وكان كل واحد منا يجد عند صاحبه ما يجده الصديق عند صديقه من المواساة والعون والتسلية والعزاء

ثم مضت الايام على ما تعودت ان تمضى عليه مستأنية متسabee حينا ومتعجلة مختلفة حينا آخر ، وجرت فيها الحوادث تباعد بيننا بعض الشيء . ثم لاتزال تلح فى الماعدة بيننا حتى جعلنا ننفق الاسابيع والاشهر لالتقى ، وننفق الاسابيع والاشهر لا يكتب أحدا الى صاحبه شيئا . ولكننا كنا على ذلك نلتقى بين الحين والحين فلا يكاد أحدا يلقي صاحبه حتى ينشد صاحبا قول الشاعر القديم :

نلتب حولا كاملا كله لا نلتقى الا على منهج

فى موسم الحج وماذا منى وأهله ان هى لم تهجج

ثم نستأنف حديثنا كأصفى ما يكون الحديث بين الصديقين الصفيين :

وكانت أكثر احاديثنا لاتكاد تتصل بحاضرنا ولا بحاضر الناس ولا تكاد تتصل بمستقبلنا ولا بمستقبل الناس ، وانما كانت تتصل بهذه الذكرى التى نسجت منها صداقتنا نسجا ، وصورت منها مودتنا تصويرا . وكانت هذه الذكرى الحلوة تكاد تشغلنا دائما عن حاضرنا وحاضر الناس ، وعن مستقبلنا ومستقبل الناس . ولكننا نلتقى ذات مساء فى هذا القطار الذى ينقل الناس من الاسكندرية الى القاهرة . يأخذ أحدا القطار فى الاسكندرية

وبأخذه الآخر فى سيدى جابر وقد مضى القطار فى طريقه ولم
يفطن أحد منا لمكان صاحبه . ثم تكون لفتة منه فى رأتى
فىسرع الى مستبشرا متهجا وهو يقول ماذا ؟ أنت هنا !
والقاءه مغتبطا مجبورا وأنا أقول لماذا . أنت هنا ! ثم يجلس كل
منا الى صاحبه وما نكاد نفرغ من التحية التى تعودنا أن نتبادلها
حين نلتقى حتى نأخذ فى حديث الجو ثم فى حديث السفر ثم فى
حديث القطر التى تحسن الإبطاء أكثر مما تحسن الإسراع ، وتحسن
التأخير عن مواعيدها أكثر مما تحسن الوفاء بهذه المواعيد . ثم
عن الاسكندرية التى تزدحم بالقاصدين اليها والنازحين عنها ،
وتموج بالمقيمين فيها ، ثم عن جوال الاسكندرية وجوال القاهرة والموازنة
بين ما يكون بينهما من اختلاف فى الصيف ومن اختلاف فى الشتاء
ومن توافق فيما يكون بين ذلك من الفصول . ثم نأخذ فى حديث
الصحف الجادة والهائلة وفى حديث الادب القديم والادب
الجديد ، وننق هذه الساعات التى ينقها المسافرين بين
القاهرة والاسكندرية متحدثين عن كل شئ الا عن انفسنا ملمين
بكل شئ الا بأحداث السياسة . وما كان أكثر ما نلتقى فلا نتحدث
الا عن انفسنا ، وما كان أكثر ما نتحدث عن انفسنا فنعبث
أثناء الحديث بالسياسة وأصحابها ونتخذ من هذا
العبث ألوانا من المتاع الرفيع . أما اليوم فقد القى بيننا وبين
انفسنا حجاب صفيق والقى بيننا وبين السياسة والسياسيين
ستار كثيف ، وجعلنا نتحدث كما يتحدث الناس حين يلتقون
على غير معرفة موثقة أو مودة متينة قد برئت من التكلف
والقيت عنها الحجب والاستار ، فهم حراس على ألا يقول بعضهم
لبعض ما يؤذى أو يسوء . لماذا تعمدنا أن نجتنب الحديث عن
ذات انفسنا ، ولماذا تعمدنا أن نجتنب الحديث حتى عن حاضرننا
وحاضر الناس وحتى عن مستقبلنا ومستقبل الناس ،
ولماذا أنفقنا هذه الساعات الطوال لا نتحدث الا فى هذه الموضوعات

التي لا تحطم شيئا كما يقول الفرنسيون ، ولماذا نسي كل واحد منا ان ينشد حين رأى صاحبه قول الشاعر القديم :

نلت حبولا كاملا كاله لا نلتقى الا على منهج

في موسم الحج وماذا منى والله ان هـى لم تحجج

سل السياسة عن هذا فهي التي تستطيع ان تخبرك الخبر اليقين ، وسل السياسة عن هذا فهي التي تحسن التفريق بين الاصدقاء والتقريب بين الاعداء ، وهي التي تحسن ان تنسى الناس انهم كانوا رفاقا في الصبا وزملاء في الشباب وأخلاء في الكهولة . وسل السياسة فهي التي تحسن ان تقيم المنافع العاجلة مقام المودة الباقية ، وان تشغل الناس بساعتهم التي هم فيها عن ماضيهم ذاك الطويل ، وان شغل الناس بما يقضون من منافع ، وما يرضون من مآرب ، وما يحققون من آمال عما وثقت الاسر بينها من عرى متينة وصلات كان يظن انها ابقى على الزمن الباقي من الزمن

وهل من الحق اننا لم نتحدث في هذه الساعات الطوال عن ذات انفسنا ، وهل من الحق اننا لم نذكر في هذه الساعات الطوال تلك الايام الحلوة التي امتلأت لذات الصبا والشباب . وهل من الحق اننا لم نعبث بالسياسة السياسيين واننا لم نعبث بانفسنا لانها اتصلت بالسياسة لسياسيين ؟ وهل من الحق اننا انفقنا هذه الساعات الطوال ، هذه الاحاديث التي كنا نكره ان نخوض فيها والتي يستعين ساس بها على ان يحتمل بعضهم بعضا ، وهل من الحق ان هذه لاحاديث التي انفقنا فيها الساعات الطوال لم تعن احدا على ان يحتمل صاحبه ، فكنا نستنجد بالسجائر التي نكثر من تحريقها ، وكنا نستنجد بماعند صاحب البولمان من القهوة والليمون والبرتقال . وكنا نستنجد بتكلف الفكاهة واختراع الدعاية نجذبها من شعور هاجد بها كما يقول الفرنسيون . وهل من الحق ان احدا لو عرف انه

سيلقى صاحبه فى القطار لقدم سفره أو آخره حتى لا يكون هذا اللقاء وحتى لا يكون الاضطراب الى هذه الاحاديث الفارغة التى لا تغنى عن اصحابها شيئا الا انها تعينهم على قطع الوقت وتمكنهم من ان يحتمل بعضهم بعضا

نعم كل هذا حق ، ولكن هناك حقا آخر لم اشك فيه ولم يشك فيه صاحبه لحظة . وهو أن السنتنا كانت تهذى بما لا يغنى وأن آذاننا كانت تتجرع هذا الهديان ، وأن قلوبنا فى أثناء ذلك كانت تتحدث بما لم تكن تتحدث به السنتنا ، وأن نفوسنا فى أثناء ذلك كانت تستمتع بما لم تكن تستمتع به آذاننا . فقد كان كل واحد منا يكذب على صاحبه اشنع الكذب بما يلقى اليه من هذا الكلام الذى لا طائل فيه والذى لا يدل على شيء . وكان كل واحد منا يصدق صاحبه اعذب الصدق بهذا الحديث الذى لم تكن تجرى به الالسننة ولم تكن تتلقاه الآذان ، وانما كانت تخفق به القلوب ، وتستمتع به النفوس ، وتجد فيه العقول راحة وروحا وتجد فيه الضمائر رضى وامنا

أما أنا فقد كنت أرانى وما أشك فى أن صاحبه قد كان يرى نفسه معى فى ذلك المكان الضيق أمام تلك الدار الصغيرة على شاطئ القناة ، وقد اظلتنا شجرات بسطت أغصانها الى ماء القناة من ناحية اخرى ، وقامت عليها الطير تملأ الجو بغنائها المتصل الرفيع وخفق أجنحتها المتقطع ، ونحن نأخذ فيما تعودنا ان نأخذ فيه من حديث وقد زفنا أصواتنا ليسمع كل منا صاحبه ، فقد كان غناء الطير ، وحفيف الورق ، وهفيف النسيم ، وتصايح الصبية من حولنا ، وتنادى الرجال والنساء هنا وهناك ، كان هذا كله يوشك أن يحول بيننا وبين الحديث

نعم كنت أرانى مع صاحبه فى هذا المكان وكنت أسمع قلبى يلقى الى قلب صاحبه حديث المودة والاخاء صفوا عفوا وعذبا نقيا ،

وكننت ألتقى من قلب صاحبي مثل ما كنت ألقى اليه ، على حين كانت السننتنا تهذى بسخيف القول لان ظروف الحياة قد أخذت تعلم الناس أن يخفوا المودة ويظهروا النفاق ، وان يسروا الحب ويعلنوا البغض ، وان يكذب بعضهم على بعض حتى في ذات أنفسهم ، وان يخيل بعضهم الى بعض ان الاسباب بينهم مقطعة وان الاسباب بينهم لموصولة . ولكن مهلا . ان اخفاء المودة يوشك ان يمحوها ، وان اسرار الاخفاء يوشك ان يقتله وان التصريح بالكذب والنفاق ، واعلان التباعد والخصومة يوشك ان يجعل الكذب والنفاق والتباعد والخصومة اصولا لما نستأنف من حياة .

وقد وصل القطار الى القاهرة ونهضنا يريد كل منا ان يروح الى اهله ولم يقل احد منا لصاحبه شيئا بلسانه لان لسانه لم يكن يقول الا كذبا ، وقال كل واحد منا لصاحبه كل شيء بقلبه لان قلبه لم يكن يقول عنه الا صدقا ، وراح كل واحد منا الى داره وان قلبه ليتقطع حشرات لانه لا يستطيع ان يبين عما فيم من حب دفين .

ابلق الامر بنا ان نخافت بالمودة ونجهر بالنفاق ؟

اضغاث احلام

رأى فيما يرى النائم كأنه يسعى متروضا على شط دجلة
حين أخذ الاصيل يحسر عن الارض والسماء في اناة وريث
ضوءه الشاحب الحزين . وكان يسعى في جنة فسيحة بعيدة
الارجاء ، رائعة الحسن ، قد اختلفت مناظر ما فيها من شجر وثمر
وزهر وعشب . فهو ينتقل بين هذا كله مستأنيا متمهلا يقف
عند هذا اللون من ألوان الزينة التي اتخذتها هذه الجنة فيطيل
الوقوف ، وينظر اليه فيطيل النظر . ولا ينتقل عنه الا حين يستيقن
انه قد رسمه في قلبه رسما صادقا . وصوره في ضميره
تصورا دقيقا . وكأنه كان يحس احساسا خفيا لا يكاد يعلمه انه
حالم لا عالم . فكان يريد أن يستيقى في نفسه هذا الحسن
البارع الذي يراه في هذا الجمال الرائع الذي يتمتع به ، لينعم بهما
اذا ردته البقطة الى هذه الحياة البغيضة التي كان يضيق بها
أشد الضيق ، لانها كانت تصور له آمالا عراضا ، وتقعده عن
بلوغ هذه الآمال . فكان يجد الالم الممض والعناء الثقيل في هذا
الرجاء الذي ينفسح له وهذا اليأس الذي يقعده به . وكان

الله يزداد شدة وحزنه يزداد لذعا حين يرى مواكب هؤلاء
الامراء والوزراء والكتاب واصحاب المكنانة في قصر الامين والمامون ،
فتنازعه نفسه الى ان يكون واحدا منهم يشاركون فيما
يستأثرون به من الغنى والسلطان والجاه . ولكنه ينظر فاذا الاسباب
بينه وبين ذلك مقطوعة لا تريد ان تتصل . ومن أين لفتى من
أوساط الناس وعامة اصحاب التجارة فيهم ان يرقى الى
الكتابة أو الوزارة أو قيادة الجند

فكانت حياته منقصة بهذا الامل البعيد والياس القريب .
فلا غرابة حين رأى ماراى في أحلام الليل ، أن يحرص على من
يستقى هذه المناظر الجميلة ، وهذه المحاسن الفاتنة ، ليتسلى
بها اذا استيقظ عن ياس لا يريم وأمل لا ينال

وانه ليتنقل في حلمه بين هذه المناظر الخلابة الساحرة ، اذا هو
يرى جارية حسناء . فاتنة الحسن تنقل مثله بطيئة متهلة
في هذه الجنة الرائعة . ولا يكاد يرى هذه الفتاة حتى تقع من
قلبه موقع الحب فتملأه حتى كأنه لا يستطيع ان يشتمل غيرها
شيئا آخر . ثم يحاول أن يدنو منها ليتحدث اليها ، ولكنها
تنأى عنه مسرعة وهى تقول في صوت عذب ، ولفظ حلو : هيهات
هيهات ، لم يؤذن لنا بعد في أن نلتقى . ثم ينظر فاذا هى قد
غابت عنه ، واذا قلبه قد خلا منها ولم يستبق الا صورة ضئيلة
جدا ان امتازت بشيء فانما تمتاز بالفتنة المغرية والقسوة المؤتسة
ويمضى في طريقه هادئا ينحدر نحو النهر في ببطء فلا يكاد يخطو
خطوات حتى يرى جارية أخرى ليست أقل من صاحبته الاولى
رواء ولا بهاء ولكنها أكثر منهازينة ، وأحسن منها شارة ،
واذا هى تلقى اليه نظرة تضرم في قلبه نارا اى نار ، فيرنو اليها
من بعيد ، ويريد أن يدنو منها لينظر اليها من قريب ولكنها
تنأى عنه مسرعة وهى تقول : هيهات هيهات لم يؤذن لنا بعد

في أن نلتقى . ثم تغيب عنه كما غابت عنه صاحبتة الاولى ولكنها قد تركت في قلبه صورة ضئيلة جدا ، واضحة جدا ، يرى فيها سحر الجمال وآية النعمة والثراء ، ويمضى في طريقه منحدرًا الى النهر واذا جارية ثالثة ليست أقل من صاحبتيتها فتونا واغراء ولكن فيها استعلاء وتكبرا وشيئا من غلظة لو كان في رجل لبغضه الناس . ولكنه يدعو اليها أشد الدعاء ، ويرغب فيها أعظم الترغيب . ولا يكاد يراها حتى يجن بها جنونه . واذا هو يحاول أن يدنو منها ليحس بين يديها ، ويرفع اليها الطاعة والعبادة ، كما تقدم الطاعة والعبادة الى الاصنام . ولكنها تنأى عنه بسرعة ، وتأبى حتى أن تقول له مثل ما قالت صاحبتاها من قبل . انما تشير اليه اشارة فيها كثير من الكبرياء ان قف ، فلم يؤذن لنا بعد في أن نلتقى .

وقد أخذ الفتى ينكر هذا الحلم العجيب وهو مفروق فيه لم يبق منه ، وكاد أنكاره لهذا الحلم أن يرده الى اليقظة ، ولولا أن صورة تراءى له فيثوب اليها ، واذا جارية رابعة ليست أقل من صاحباتها دعاء للقلب ، واستهواء للنفس لولا أنها لا تنظر الا بشدرا ، ولولا أن كل ما يظهر على وجهها من هذه الآيات التي تصور دخيلة النفس ، وأعماق الضمير ، لا يدل الا على الغلظة والفطرسية وسوء الخلق ، وهى مع ذلك تفتن كل الفتون وتملا قلبه هياما وشوقا وهو يريد أن يستعطفها ، ولكنها عنه بسرعة وهى تشير في إباء وجفاء ، ان قف فلم يؤذن لنا بعد في أن نلتقى .

وقد أحس الفتى حسرة مؤذية ولوعة حرقت قلبه تحريقا وجعل يتحدث الى نفسه في هذا الحلم الغريب لانه شقى بأئس قد كتب عليه الحرمان في حياته اليقظة وفي حياته النائمة . ومن يدري لعل الحرمان أن يكون قد كتب عليه في حياته الدنيا وفي حياته الآخرة . واذا ففيم خلق ؟ ولم قذفت به الاقدار في هذا العالم البغيض الذي لا تحلو فيه يقظة ولا نوم . ولكنه

يرى امرأة نصفًا ليست بالجميلة الرائعة ، ولا الذميمة التي تنصرف عنها الابصار . ولكنها شيء بين ذلك . في وجهها الحازم ما يدعو الى الحب وفيه ما يحمل على الاكبار وفيه اشراق غريب شيع في القلب رقة وفي النفس عطفًا وميلا الى الحنان . وهذه المرأة قائمة مكانها لا تتحول عنه ولا تظهر ميلا الى التحول عنه وقد أخذ الفتى يدنومنها شيئًا ، فلم تنفر منه ولم تغب عنه ، وانما أقامت مكانها هادئة يفيض من وجهها هذا البشر الحازم ، وهذا الحنان الذي يملأ القلب طمأنينة ورضى ، وهى تشير الى الفتى في ظرف وعطف ان اقبل ، كأنها شهدت مالقى من أولئك الجوارى الاربع فرقت له ، واشفقت عليه ، وأحبت ان تسليه وتواسيه . ولكن الفتى يعرض عنها اعراضا ، ويصد عنها صدودا ، ويوليها ظهره وهو يقول : هيهات لن يكون بيننا لقاء ، فلست أحب العطف ولا أريد الرفق ، وليس أبغض الى من هذا الامل الذى لا اجد فى تحقيقه الجهد المجهد ، ولا فى الظفر به العناء الثقيل

• وكان اعراضه هذا قد ملأ قلبه غيظا فرده الى اليقظة على ابغض ما كان يجب ان يستيقظ عليه من الحال . على هذا الامل القريب الذى لا رغبة له فيه ، ولا حاجة به اليه ، بعد ان أفلتت منه هذه الآمال العسيرة التى كان عليها حريصا وبها كلفا ، وقد أنفق نهاره مفكرا فى هذا الحلم الغريب ، مستحضرا هذه الصور الجميلة التى تراءت له ثم نأت عنه ، منكرا حظه من النوم واليقظة جميعا •

ويقبل أبوه مع المساء فاذا رآه فى هذا الذهول ، لامه أشد اللوم وعنفه وأنبه اعظم التأنيب ، وحثه على أن يترك حياة الادب هذه ، التى ترقى بأصحابها الى السحاب ، ثم لا تبلغهم من آمالهم شيئًا . ورغبة فى أن يسير سيرة أسرته فيعمل فى التجارة المريحة التى لا تضيق على صاحبها وقتا ولا جهدا ولا تفكيرًا

ولكن الفتى يمتنع عن أبيه أشد الامتناع ويظهر له الزهد في التجارة والازدراء لحياة التجار، ثم ينفق ليلة ساهرة لا يذوق فيها النوم ، ولا يصاحب فيها الا القلم والقرطاس ، حتى أشرفت الارض بنور ربها ، وفرغت بغداد من مواكب الامراء والوزراء ، والكتاب الذين استقروا في دواوينهم حين ارتفع الضحى . اقبل الفتى يسعى الى ديوان الحسن بن سهل الوزير . فما زال يتلطف حتى ادخل عليه ، فأشده مدحة اعجبه ، وانصرف عنه بجائزة ارضته ، وراح على أبيه آخر النهار بعشرة آلاف درهم نشرها بين يديه . قال الشيخ مبهورا مسحورا : لا لولمك بعد اليوم ، في ازدراء التجارة والاقبال على حياة الادباء

ومنذ ذلك اليوم اتصلت أسباب الفتى محمد بن عبد الملك الزيات بأسباب الوزراء والكتاب، وما زال يرقى من درجة الى درجة ، ويسمو من منزلة الى منزلة ، حتى نظر ذات يوم ، فإذا هو قد فوض الخليفة اليه أمور الدولة كلها . فله الامر والنهي واليه المنع والمنع ، وفي يده سلطان السيف والقلم جميعا ، وإذا ثروته لا تحصى ولا يقاس اليها الا ثروة أمير المؤمنين ، ومن يدرى لعله ان يكون اقدر على ابتذال المال والتصرف فيه من أمير المؤمنين . فهو يأمر وينهى في المال غير مراجع ولا مدافع . وأمير المؤمنين لا يعطى ولا يمنع الا عن رأيه ومشورته

وقد فرغ من غذائه ذات يوم وأوى الى مضجعه يلتمس شيئا من راحة ، فيقفى أفغاء قصيرة ، وإذا هو يرى نفسه في تلك الجنة الفسيحة ذات الارعاء البعيدة . وجارية حسناء ترقمه من بعيد وهو يدنو منها ، محبا لها ، معجبا بها ، حتى اذا استطاع ان ينظر في وجهها من قريب ، لم ينكر هذه الصورة ، وانما ذكر كان عهده بها كان قريبا ! فهي اذن تلك الفتاة الحسنة التي رآها في حلمه ذاك ، والتي كانت تظهر عليها آيات الغنى والسعة ،

وهي تبسم له وتدنومنه ، وتقول له في صوتها العذب ولفظها الحلو :
 ادن ابا جعفر فقد اذن لنا الآن ان نلتقى . قال ابو جعفر : جعلت
 فداك من تكونين . قالت في صوتها العذب ولفظها الحلو : انا الثروة
 وأفاق ابو جعفر باسم الثغر ، راضى النفس ، يعجب من حلمه
 القديم ، وحلمه الجديد . ولكنه كان صاحب جد وحزم وفلسفة
 فلم يلبث ان هز رأسه وتلا قول الله عز وجل : قالوا اضغات احلام
 وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين » ومضى ابو جعفر يصرف أمور
 الدولة كما يهوى ، وعلى ما يحب امير المؤمنين ، لا يسأل عن العدل
 اين هو ! ولا يسأل عن الظلم اين هو ! وانما يسأل عن رضى نفسه
 ورضى امين المؤمنين . يسلك اليهما الطرق المستقيمة والمعوجة ويركب
 اليهما الحزن والسهل ويضحى في سبيلهما بالماضى والمستقبل
 فيجفو الصديق ويلقاهم بالغلظة حيناً والازدراء حيناً آخر لا يعرف
 لهم رداً ولا يرعى لهم عهداً حتى يقول له صديقه القديم ابراهيم
 ابن العباس الصولى

وكنت اذم اليك الزمان فاصبحت منك اذم الزمانا
 وكنت اعدك للنائبات فها انا اطب منك الامانا

ثم يقول في الاستعلاء ، ويعمن في الكبرياء حتى يلقى اخا امير
 المؤمنين اشنع لقاء . ويتعمد ابداءه في نفسه وجسمه بمحضر
 من اهل الديوان لان امير المؤمنين كان مفاضيا لاختيه

وفي مساء ذلك اليوم خلا الى ندمائه فأخذ من لهوه المادى
 والعقلى بحظ عظيم ، وثقل عليه الشراب حين تقدم الليل ،
 فأغفى اغفاء قصيرة ثم افاق ، وهو يتلو قول الله عز وجل :
 « قالوا اضغات احلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين » فلما
 ساله بعض ندمائه عن ذلك قال : رؤيا رأيته في هذه الاغفاء وما
 ارى الا انها من اثر الشراب

ولم تكن الرؤيا من اثر الشراب ، وانما كن حلما يعبر حلما ، فقد

رأى نفسه في جنته تلك ، ورأى تلك الجارية الایبة المتفطرة
تبسم له وتسعى اليه ، وهى تقول : أدن أبا جعفر فقد اذن
لنا الآن فى أن نسطحب . ألا تذكرنى ؟ لقد التقينا ذات مساء فى جنتنا
هذه على شاطئ نهرنا هذا ، وقد كنت تريد أن تستعطفنى .
قال أبو جعفر : نفسى فداؤك من تكوينين ؟ قالت : أنا الجفوة قد
أجبتك منذ اليوم فانا صفاء لك وجفاء لاعدائك . وما أرى الا أن
الناس جميعا عدو لك

ومضى أبو جعفر يستزید من السلطان ويستزید من الثراء
ويستزید من الكبرياء والبأس حتى بلغ من العنف مالم يبلغه
وزیر قبله . وسام المسلمين من الوان العذاب مالم يكن المسلمون
يظنون ان من الممكن أن يساق اليهم . واتخذ تنوره ذلك الذى
كان يستصفى به الاموال من العمال ، وكان ضيقا شديد الضيق
قد أحيطت انحاؤه كلها بالمسامير ذات الحدود المرهفة ، يدخل فيها
الرجل من الناس فتأخذ المسامير جسمه من جميع أقطاره وقد
جرب أداته تلك فى أحد العمال ذات يوم وجعل ينظر الى هذا
العذاب ويجد فيه متاعا وراحة ورضى . فلما ذكرت له الرحمة
قال : انما الرحمة خور فى الطبيعة وضعف فى المنة وما
رحمت شيئا قط .

وفى مساء هذا اليوم رأى فيما يرى النائم إحدى جواربه أولئك
فى جنته تلك ، تسعى اليه باسمه ابتساما مرا وهى تقول أقبل
أبا جعفر ألا تعرفنى ؟ أنا صديقتك القسوة لقد التقينا ذات اصيل
فى جنتنا هذه على شط نهرنا هذا . فقد آن لنا الآن ان نلتقى
ولن يفرق بيننا الا الموت .

وأصبح أبو جعفر ضيقا بهذه الاحلام التى يعبر بعضها بعضا
وحدث نفسه بأن يسأل فى ذلك بعض اصحاب الفلسفة لعلهم
يجدون لهذا النحو من حياة الناس تفسيرا . ولكنه استكبر
حتى عن السؤال وخشى أن تحدث الى الكندى الفيلسوف

في ذلك أن يزدرية ، ويستخف حلمه ، ويتندر بقصته عند أمير المؤمنين . فلم يتحدث بشيء من أمره الى أحد . وانما تلا قول الله عز وجل : « قالوا أضغاث أحلام وما نحن بنأويل الاحلام بعالمين »

ومضى أبو جعفر يصرف أمور الدولة كما يشتهي هو لا كما تشتهي أمور الدولة ، حتى ملأ الارض رعبا ورهبا ، وحتى كان الخوف قوام الصلة بينه وبين القريب والبعيد

وقد توفي أمير المؤمنين وانتقلت الخلافة الى أخيه ولكن أبا جعفر مطمئن القلب رضى البال . قدامتأت نفسه ثقة بنفسه ، وأمن المكروه كل المكروه . فهو مستيقن أن قصور الخلفاء لم تعرف قط وزيرا يشبهه قوة وايداء وحسن تصريف للامور ، فلن يستغنى عنه أمير المؤمنين . ولكنه يصبح ذات يوم وقد وجد الشك اليسير الخفى الى قلبه العنيف الابى سبيلا . لانه رأى فيما يرى النائم جارية من جواريه تلك تبسم له ابتسامة حزينة ، وتناى عنه رويدا رويدا . وهى تقول فى صوت تكاد تخنقه العبرات : وداعا أبا جعفر ، لقد حمدت صحبتى لك ، ومعاشرتى اياك ، ولكن قضى علينا أن نفترق . قال أبو جعفر : ويحك من تكونين ؟ قالت انا صديقتك السطوة ، أتسى يوم التقينا فى جنتنا هذه على شطرنحنا هذا ، وقد أفاق أبو جعفر فى ذلك اليوم مضطرب النفس بعض الشيء ، وهم أن يتلو الآية الكريمة فلم ينطلق بها لسانه وانما ألح الشك على نفسه الحاحا

ولم يأت أصيل ذلك اليوم حتى كان أبو جعفر فى سجن أمير المؤمنين المتوكل . قد جرد من سطوته وجفوته ، وثروته وقسوته . ورد الى حال الشقى البائس الذى لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، والذى يدعو فلا يستجاب له ويتمنى فلا يحفل أحد بتمنيه . ويشكو فلا يرق أحد لشكاته

وقد صبر أبو جعفر على السجن ما كان السجن سهلا
يسيرا ، ولكنه لم يلبث أن استحال الى العذاب يصب عليه
فى الليل وقد وكل السلطان به من يسامره . حتى اذا أحسن منه
راحة أو شيئا يشبه الراحة نخسه بالمسلات ليرده الى الالم
وليجدد عهده بطعم العذاب . وقد صبر أبو جعفر على هذا
العذاب ماواتته قوته ، واحتملت طبيعته شدة البأس ، ولكنه
يرى ذات يوم على باب الحجر التى يعذب فيها من حجات
السجن صورة يعرفها ولا ينكرها ، يراها يقظان وقد كان
يرى صاحباتها نائما . وهو ينظر فى وجهها نظرة المشوق اليها
المفتون بها ، وكلما زاد اليها نظرا ، ازداد اليها شوقا وها
كلها . وهو يدعو بقلبه كله ونفسه كلها ، وهى تريد أن
تستجيب له وتود لو تخطو هذه الخطوات القليلة التى تدنيها منه
وتقربها اليه ، ولكنها ترد عن ذلك ردا رقيقا فترسل الى أبى
جعفر نظرات حلوة فيها حنان وعطف واشفاق . واذا لسان أبى
جعفر ينطلق بهذه الكلمة فى صوت هادئ يقطعه الالم ، الرحمة .
قال الذين يعذبونه وقد ظنوا انه يسترحمهم . انما الرحمة
خور فى الطبيعة ، وضعف فى المنة ، وهل رحمت شيئا قط ؟ ولم
يطلب أبو جعفر اليهم رحمة وانما عرف صاحبه تلك التى
رأها فى جنته تلك على شاطئ دجلة فسمها باسمها
ومنذ ذلك اليوم لم ينطق أبو جعفر الا بشهادة أن لا اله الا الله
وأن محمدا رسول الله حتى حين أدخل فى التنور الذى كان يعذب
به الناس لم ينطق لسانه بغير هذه الكلمة حتى مات

ضمير حائر

آوى الى سريريه راضيا ناعم البال ، وهب من سريريه موقورا
طيب انفس ، ونام بين ذلك نوما هادئا هائئا لم تنغصه مروعات
الاحلام . ولم يكد يخرج من غرفته حتى تلقاه الصبية من بينه
وبناته بوجوه مشرقة تتالق فيها نضرة النعيم ، وثغور جميلة تبسم
عن مثل اللؤلؤ المنضود ، وحملت اليه أصواتهم الرخصة العذبة تحية
الصباح فردها عليهم فى صوت حلو يجرى فيه الحزم الصارم
ويشيع فيه الحنان الرقيق ، وأنفق معهم ساعة حلوة يداعب
هذه ويلعب ذاك ، ثم خلص منهم بعد جهد وفرغ نفسه ليصلح من
شأنه قبل ان يفسدو الى عمله ، وكان عمله خطيرا ، وكان اهتمامه
لهذا العمل وعنايته به اعظم منه خطرا ، لانه كان قوى الضمير
حريصا اشد الحرص على أداء الواجب كاملا ، وكان أبغض شئ
اليه ان يتهمه أحد أو ان يتهم هو نفسه بأيسر التقصير
ولم تكن عنايته بحسن زيه وجمال شكله اقل من عنايته
بالعمل والواجب ، فقد استقر فى نفسه منذ بلغ الشباب ان من
كمال المروءة ان يكون الرجل حسن المنظر جميل الطلعة
ما وسعه ذلك ، وأن تقع عليه العين فلا تقتحمه وتبلغه الابصار

فلا تزور عنه ولا تعدوه الى سواه . ذلك ادنى ان يحببه الى النفوس ويحسن مكانه في القلوب ، ويجعل محضره خفيفا وعشرته شيئا يطلب ويرغب فيه

وكان الله قد منح صاحبنا حظا من جمال الخلقة وخلقه في تقويم حسن فزاده ذلك عناية بنفسه واهتماما بمنظره وشجعه الناس على ذلك بما كانوا يهدون اليه من ثناء ، وشجعه النساء خاصة على ذلك بما كن يحمدن من صورته الرائعة وزيه الانيق وحسن تلفظه في اللقاء والعشرة والحديث ، كل ذلك فرض عليه العناية بجسمه وزيه وشارنه اكثر مما تعود الناس ان يصنعوا فكان يخلو في غرفته كل صباح ، وكان يخلو في غرفته كل مساء وقتا غير قصير ، ثم يخرج من غرفته ليفدو الى عمله او ليروح الى ناديه ، فلا يكاد اهله يرونه حتى يحدث منظره الرائع في نفوسهم فجاءة جديدة على كثرة معاشرتهم له ومخالطتهم اياه .

وقد خلا في ذلك الصباح الى نفسه في غرفته فأطال الخلوة وغير وبدل من زيه ما استطاع لتغيير والتبديل ، حتى اذا اعد نفسه للناس او اعتقد انه اعد نفسه للناس ، وهم ان يخرج القى الى المرأة هذه النظرة السريعة لحاطقة ، التي كان يلقيها اليها دائما كأنما يسألها رأيها الاخير قبل ان يخرج للقاء الناس . وكن رأيها الاخير دائما حسنا مقنعا يشيع في نفسه شيئا من الرضى الهادئ واثقة المنتظرة . ولكن رأى المرأة الاخير في ذلك الصباح لم يكن حسنا ولا مقنعا ولا متشبعنا للرضى واثقة وانما كان مزعجا مروعا . فلم تكذعينه تبلغ المرأة حتى ارتدت عنها مذعورة ثم عادت اليها مشفقة ، وارتدت عنها وقد نقلت الى قلبه ذعرا يبلغ الهلع واذا هو يرتد عن مكانه ويرجع اندراجيه مسرعا ويعصر وجهه عن المرأة نحو يلائها حتى لا تخطئ عينه فتمتد

اليها مرة أخرى . وقد أخذ قلبه يخفق خفقانا شديدا سريعا متصلا ، وأخذت جبهته تنضج بشيء من عرق بارد ، وأخذت قطرات من هذا العرق تنطبع على وجهه وجعل الدوار يعث به وبكل شيء من حوله حتى خيل إليه أن الغرفة كلها قد استدارت فأصبحت المرأة وراءه وأصبحت هذه المائدة التي كان يجلس اليها ليصلح من شأنه امامه . وإذا هو مضطرب الى أن يتماسك ويتمالك ، وإذا هو عاجز عن ذلك فيجلس على أول كرسي يلقه مضطربا ممعنا في الاضطراب حائرا لا يكاد يتبين حيرته ولا يكاد يتبين مصدرها ، ومع ذلك فقد كان مصدر هذه الحيرة يسيرا جدا غريبا جدا في وقت واحد . كان يسيرا لانه لم يكن الا ما رأى في المرأة وكان غريبا لانه لم يرفى المرأة وجهه وإنما رأى اقبح وجه يمكن أن يكون الله قد خلقه ، وأبشع منظر يمكن أن يمتحن الله به الناس أو القروء . وقد طال جلوسه على كرسيه واطراقه الى الارض واغراقه في الحيرة ، ثم أخذ جسمه يهدأ شيئا فشيئا وجعل قلبه يستقر في صدره قليلا قليلا وامتدت يده فائرة الى منديل أمره على وجهه فجفف به العرق ، وارتسمت على ثغره ابتسامة هائلة فيها شيء من غموض وشيء من رضى ، فقد ثابت نفسه اليه وجعل يسخر من هذا الروع الذى ألم به فأكبر الظن أن شيئا من علة قد ألم بمعدته فأفسد عليه مزاجه شيئا ما ، ثم انشأ يسأل نفسه عما طعم أمس وعما شرب فلم ينكر من طعامه ولا من شرابه شيئا فقد طعم أمس وشرب كما كان يطعم ويشرب في كل يوم ، ولكن بمعدته شيئا من غير شك ، هو الذى خيل اليه ما خيل حين مد عينه الى المرأة . ومن المحقق انه لم يكن يحس ألما ولا يشعر بشيء مما يشعر به المرضى حين يطرأ عليهم المرض . ولكن لاسبيل الى تعليل هذه الظاهرة الطارئة الا بشيء اصاب معدته أو كبده ، وهو على كل حال قد استرد شيئا من طمأنينته فعاد الى

شأنه يصلح منه ما أفسد هذا الاضطراب . فلما بلغ من ذلك ما ارضاه ازمع ان يخرج من غرفته دون ان يسأل هذه المرأة المشؤومة عن شيء . ولكن الوسواس الخناس الذى بوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس .لقى فى روعه مع كثير من اللباقة والمكر ، أن من الحق عليه أن يسأل هذه المرأة التى تعود ان يسألها دائما ، والتى تعودت ان تصدقه دائما ، فمن يدرى لعل شيئا لم به فغير من وجهه وشكله وهو لا يدرى وما ينبغى أن يظهر للناس منه على ما لا يجب ان يظهروا عليه ، وقدلقى نظرتة الى المرأة فارتدت عينه مذعورة ، ثم عادت الى المرأة مشفقة ، ثم ارتدت وقد حملت الى قلبه جرحا وهلعا واذا هو يجاهد ليحس صيحة قد همت ان تخرج من حلقه فتملأ الغرفة من حوله ، وتدعو اليه اهل الدار ، ولكنه رد هذه الصيحة الى مستقرها ولم يتح لها ان تنفجر واستأنف اضطرابه ذلك . ثم ثابت اليه نفسه بعد لاي فيسرع الى الجرس يدهقه فاذا دخلت عليه الخادم رفع اليها وجهه وظل صامتا حين يريد ان يعرف اتكر الخادم من امره شيئا . فلما رأى الخادم كدأها كلما دعاها اليه قائمة واجمة تنتظر امره لاتنكر شيئا ولا تعرف شيئا أولا تظهر معرفة ولا انكار قال لها فى صوت هادئ يكاد يضطرب : انبئى سيدتك انى انتظرها وأقبلت زوجها بعد حين فراته قائما باسمها ينتظر مقدمها فلما رآته اخذها منظره كما تعود ان يأخذها كل صباح وكل مساء ، وسألها هو اتكرين من امرى شيئا ؟ قالت متضاحكة . وماذا تريد ان انكر من امرى ! انما انت كما تعودت دائما ان اراك رائع الشكل جميل المنظر خلابة للنساء . الى اين تريدان تغدو اليوم فانى اراك تكلفت عنابة بزيك قلما تكلفها ؟ قال والى اين اغدو الا الى عملى . قالت فان عملك لا يحتاج الى كل هذا التألق . ولكنه أعاد عليها قوله : افى الحق أنك لا تنكرين منى شيئا ؟ قالت

مفرقة في الضحك . في الحق اني انكر منك هذا الاسراف في التجميل . قال في شيء يشبه الذهول : ان هذه المرأة تنسئني بغير ماتقولين . ثم القى على المرأة نظرتة الخاطفة تلك وارتد عنها وجلا مدعورا يقول لامرأته انتمسى لي طبييا

وقد عاده طبيب وطبيب وطبيب ، عادوه متفرقين وعادوه مجتمعين وفحصوا من جسمه كل مايمكن ان يفحصوا وامتحنوا كل مايمكن ان يمتحنوا ، فلم يروا به بأسا ولم يشخصوا له علة ولم يصفوا له دواء . وقل له قائلهم : ما ترى بجسمك من بأس ، فالتمس دواء نفسك عند نفسك فمناظن الآن في ضميرك شيئا يؤذيك على علم منك أو على غير علم ، وقد غيرت المرأة في غرفته مرة ومرة ولكن المايا كلها جعلت كلما التمس نفسه فيهاردت اليه صورة غير صورته وشكلا غير شكله ، وملا قلبه أفرقا وروعا ، وقد تسامع أعوانه واصحابه بانه مريض منذ لزم غرفته وانقطع عن عمله فجعلوا يسعون اليه ليعودوه يلقيه أقبلهم ويرد عنه اكثرهم وينبئ أولئك وهؤلاء من امره بغير الحق ، تخترع لهم العلل ، وتبتكر لهم الادواء فيصدق منهم من يصدق ويكذب منهم من يكذب ويشك منهم من يشك . وكنت من هؤلاء الاصدقاء الذين سعوا اليه وسألوا عنه ثم اتيح لهم ان يروه . وكنت أثيرا عنده كما كان اثيرا عندى لأخفى عليه من ذات نفسى شيئا كما لا يخفى على من ذات نفسه شيئا . ولقد لقيته فيمن لقيه من أصحابه ذات يوم فسمعنا منه ، وقلنا له ، وضربنا معه اخماسا لاسداس في امرعته . نصدق نحن في حيرتنا ويتكلف هو لنا الحيرة تكلفا لا يكاد يخفى على فلما هممنا ان ننصرف استبقانى في لباقة وظرف فبقيت ومضى الحديث بيننا الوانا ساعة من نهار ثم عدنا الى علة فاذا هو يتحدث الى بأمره كله في وضوح وجلاء

قلت ضاحكا : العلك قرات هذه القصة الانجليزية التي كتبها اوسكار ويلد وسماها صورة دوريان جري ، فان فيها ما يشبه

قصتك من بعض الوجوه . قال : فانك تعلم انى لا أقرأ الانجليزية ولا أقرأ لغة اوربية ولا أعرف ان هذه القصة قد نقلت الى العربية . قلت : أولم يتحدث اليك قط متحدث عن هذا الكتاب و كاتبه . قال : سمعت أطرافا من الحديث عن أوسكار ويلد ، ولكن لم أسمع عن هذا الكتاب من كتبه قليلا ولا كثيرا فحدثنى أنت عن هذا الكتاب قلت : لقد قرأته منذ زمن بعيد واذكر أنه يعرض على قرائه قصه فتى حسن رائع الحسن ، جميل بارع الجمال ، اتخذ له صديق مصور ، صورة تطابق شكله جمالا وروعة ، وقد اقترب هذا الفتى فى مستقبل أيامه سيئات كثيرة ، واجترح اثاما مختلفة ، فبغضت اليه نفسه أشد البغض ، وقبحت صورته المصنوعة فى عينه أشنع التقيح ، فنفاها من حجرات داره وغرفاته الى حيث ينفى سقط المتاع . ولكنه كان يلم بهام من حين الى حين تزيدا من بغضه لها وسخطه عليها واستعذابا لهذا السخط وذلك البغض . ثم أصبح الناس ذات يوم فرأوه مقتولا الى جانب صورته ، أراد ان يمزق الصورة فمزق صدره . وقد اراد اوسكار ويلد فيما أظن ان يصور تأثير الندم على ما يقترب من الآثام فى بعض الضمائر والنفوس ، فلم تكن هذه الامراة لضمير دوريان جرى . رأى فيهما ما كان يلا ضميره من السيئات المنكرة والجرائم البشعة

قال صاحبى فى صوت يأتى من بعيد : وما أنا وهذه القصة . قلت فى صوت يأتى من بعيد ايضا : خشيت أن تكون قد قرأتها أو سمعت عنها فأنثرت فى أعصابك تأثيرا سيئا ، فما أكثر ما تؤثر الكتب قيمها وسخيفها فى أعصاب الناس ، فتحملهم على غير ما أراد المؤلفون ان يحملوهم عليه . قال صاحبى وعلى ثغره ابتسامة حزينة هون عليك ، فانى لم أقرأ هذا الكتاب ، ولم أسمع عنه ، ولم أنثر به قليلا ولا كثيرا ومع ذلك فان من حقه أن يقرأ ، قلت : وقد ندمت بعد ذلك على ما كتبت - فالتمس فى أثناء نفسك واحناء قلبك خطا لعنك

قد دفعت إليه او مساءة لعلك قد قدمتها الى برى . فانى أعلم انا
 نجهل من أمر الضمير الانسانى أكثر مما نعلم ، ومن يدرى لعل فى
 ضميرك الخفى ندما على شىء أتيت ثم انسيته ولعلك ان استكشفته
 ان تصلحه وتستغفر الله منه فتقل هذا الندم الذى أخشى أن يكون
 هو الذى ينغص عليك الحياة . وتركت صاحبى حائرا مبهوتا ثم
 انبثت بعد أيام انه يمرض فى بعض المستشفيات . فلما سألت
 عن جلية ذلك قص على محدثى عجا من الامر . فقد كان صديقى
 هذا البائس من قوم كرام مات أكثرهم وبقي أقلهم . وكان الذين
 ماتوا - رحمهم الله - يرتفعون عن الصغائر ويمتنعون على الدنيايات
 وتأبى نفوسهم . فيما تأبى جحود العارف ، وانكار الجميل . ورثوا
 ذلك عن ابائهم واحبوا ان يورثوه أبناءهم فحال بينهم وبين ذلك هذا
 التطور الحديث الذى غير مقياس الأشياء ، وادار أعمال الناس
 واقوالهم على المنافع العاجلة والمآرب القريبة لاعلى ما كان يألف
 أبائنا من رعاية الحق وتقدير المعروف ، وكان صديقى هذا
 البائس احرص الناس على ازيشبه الذين سبقوه من قومه فى
 كل ما كانوا يأتون ويدعون من الامر ، ولكن أحداث الدهر ، وخطوب
 الايام وما تحمل من رغبة ورهبة ومن اغراء وتنفير كانت اقوى من
 خلقه وارادته فلم يستطع ان يكون خليقا بالذين سبقوه من
 قومه . وانما كان خليقا بالذين عاصروه من أتراه
 كان قومه يستحيون من انفسهم قبل ان يستحيوا من الناس
 وكان هو يستخفى من الناس ولا يستخفى من ضمير ، ولا من الله
 وهما معه اينما كان . فلما قصصت عليه قصة أوسكر وولد كنت
 كنما كشفت عن نفسه الفطاء فاصبح يتحدث الى امراته والى
 خاصته بان هذا الوجه القبيح الذى كان يراه فى المرأة لم يكن
 وجهه ، فوجهه ما زال جميلا رائعا وانما هو امرأة ضميره
 لان ضميره بشع دمى

ثم يمضى فى حديثه فيقول : لا تنكروا مما أقول لكم شيئا
فانى لا ارى هذا الوجه البشع اذا نظرت فى المرأة فحسب بل انا
اراد كلما خلوت الى نفسى . اراد يحمله جسم كجسمى واره
يجلس الى غير بعيد ، ينظر الى شدرا اول الامر ثم لا يزل يرفق
بى ويظهر الرقة لى حتى اطمئن اليه فيحدثنى فى صوت هادىء
رفيق عن سيئات تقدمت بها الى الناس فيما مضى من الدهر ثم
يقول لى فى صوت هادىء يخيفنى اشد الخوف ليتك لم تفعل . فقد
كنت ارانى جميلا فجعلتنى قبيحا شعا ، وكنت ارانى سعيدا
فجعلتنى شقيا بائسا فقد احتملت وحدى قبحى وبشاعتى وشقائى
وبؤسى ، ثم اعيانى احتمال هذا الثقل فرايت ان تشاركنى فى
النهوض به فسالزرك منذ الان كما يلزم الظل صاحبه ، واى غرابه
فى ان يلزم الضمير صاحبه ، وكان صديقى البائس يقول ذلك لاهله
وخاصته فى صوت غريب يملأ قلوبهم خوفا واشفاقا ورحمة
وعطفا ، ثم كان يلح عليهم فى الايخلوا بينه وبين نفسه فلزموه
واطالوا البقاء معه ولكن بفضله لظله هذا . اول ضميره هذا جعل
يعظم ويشدد كما ان حب ظله وضميره له جعل يعظم ويشدد
ايضا ، فقد راي ضميره فى المرأة اول الامر ثم جعل يراه فى الخلوة
بعد ذلك ثم اصبح يراه حين يخلو الى نفسه وحين يحبط به
اهله وخاصته واذا امره ينتهى به الى الجنون النائر او الى ما يشبه
واذا اهله مضطرون الى ان يرضوه فى بعض المستشفيات التى تعالج
فيها الاعصاب المريضة

ليتقى لم اكشف لصاحبى عن نفسه الغطاء ، استغفر الله
ماذا أقول . وهل يزيد الكتاب على ان يكشفوا للناس عن نفوسهم
لفطاء

مدرسة الكذابين

اصحكى ياسيدتى واغرقى في الضحك ، فذلك شيء يسرنى
وبرضىنى ، لان الضحك خير من البكاء ، ولان النشاط خير من
الفتور . ولان ذلك بعد لا يقض من هذا التشبيه الذى تضحكين
منه ولا يرده الى الضعف فضلا عن ان يرده الى الفساد . فانت
تخدعين نفسك بهذا التناقض الذى ينخدع به اصحاب
السذاجة ، ترين الذبابة كائنات يسرا ضئلا لا يكاد يشغل من
الجو اذا استقل فى الجو حيزا ذا خطرا ، ولا يكاد يشغل من
الجسم ان وقع على الجسم الامكانا لا يكاد يذكر ، وترين صاحبنا
ضخما فخما ، طويلا عريضا ، يسعى فيسبقه بطنه ، كأنما يفسح له
الطريق ، وهو على ذلك أو من اجل ذلك يمشى ثقيلًا بطيئًا ، كأنما يبدل
أشق الجهد وأعنفه فى كل خطوة يخطوها من خطواته هذه القصار
التي لا تكاد تقدمه اذا سعى الا فى كثير من العناء . فاذا اراد ان
يجلس التمس هو أو التمس الناس له ما يلائم جسمه الضخم
الفخم من الكراسى العراض التي تستطيع ان تحتمل الانتقال دون
ان تنحل أو تنهار . فاذا تكلم ارتج من حوله كل شيء واحتاج
الناس الى ان يرغبوا اليه فى ان يقض من صوته ويخافت بحديته
اشفاقا على الاسماع ان تستك ، وعلى الاسنان ان تصطك ، وعلى

القلوب ان تنخلع ، وعلى الرؤوس ان يأخذها الدوار ، ومع ذلك
اشبه هذا الكائن الهائل الخفيف بذلك الكائن الضئيل الخفيف .
وأى غرابة فى هذا فانى لم اشبه جسمًا بجسم ولا شكلًا بشكل
وانما شبهت خلقًا بخلق ومزاجًا بمزاج

والله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، ويخرج
الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، وهو قادر ان شاء على ان
يركب فى الناس اخلاق الذباب ويركب فى الذباب اخلاق الناس ،
ومن يدرى لعلنا لو فهمنا طنين الذباب واستطعنا ان نترجم
ما يدور بين افراده وجماعته من الحديث ، ان يتاح لنا ان نتبين
ان الله قد ركب فى الذباب اخلاق بعض الافراد والجماعات من
الناس . ولكننا لم نعلم منطق الذباب ولم يتح لنا ان نفهم لغته
ولا ان نستقصى ما يدور بين افراده من الاحاديث ولا ما يكون
بين جماعته من الخطوب ، فاما الانسان فقد أتيح لنا ان نفهم
لغته ونبلو اخباره ونستقصى انباءه ، وأتيح لنا من اجل ذلك
ان نتبين بعض ما فيه من الخصال التى تقربه من كبار
الحيوان حينًا ومن صفاره حينًا آخر .

والذى استطيع ان يحققه هو ان صاحبه هذا الفخم الضخم
الطويل العريض قد فطر على شىء من اخلاق الذباب . واطهر
ما ركب فيه من ذلك ، هذا التهالك الملح الذى يمنعه ان يعيش
بنفسه ، وان يعيش لنفسه ، وان يستقل بشخصه لحظة من
لحظات الحياة ، فهو دائما تابع لشيء او تابع لانسان ، وهو دائما
ملح فى التبع للاشياء وللناس ، وهو يحيا من هذا التبع ولا
يستطيع ان يحيا بدونه ، وهو من اجل هذا مدفوع اليه
بالفريرة القاهرة التى لا يدبرها عقل ولا تصرفها ارادة وانما هى
مندفعة امامها لا ترددها الاحداث ولا تصدها الخطوب

وهنا يظهر الفرق الواضح بين صاحبا وبين الذباب فليس
للذباب ما يحميه منا ان اردنا ان نرده او نصده او نخلص منه ،

بل كل شيء يفرضنا بذلك ويحتملنا عليه . ولكن صاحبنا قد وجد من الحياة الاجتماعية ومن نظم الحضارة وقوانينها ومن الشرائع المنزلة والشرائع المتكلفة ما يوفر له الحماية كل الحماية، ويسمح له ان يكلف الناس من امرهم شططا وان يعذبهم عذابا أليما . فهم لا يستطيعون ان يصدوه في رفق دون ان يخرجوا على قوانين العرف المؤلف والادب الموروث، وهم لا يستطيعون ان يصدوه في عنف دون ان يخرجوا على النظم والقوانين التي لا يستطيع الرجل المتحضر ان يخرج عليها ، والتي لا تسمح لمتحضر أو غير متحضر بالخروج عليها

فنحن مضطرون الى ان نحتمله طائعين أو كارهين والى ان نشقى به راضين بذلك أو ساخطين عليه . وهو يعلم ذلك حق العلم ويشعر بذلك أقوى الشعور فيستغل ذلك أبشع الاستغلال وينتفع به اقبح الانتفاع وينمى في نفسه اخلاق الذباب ما وجد الى تمتيتها سبيلا . ولو أتبع لك ياسيدتى ان تجربى معاملة الذباب على نحو ما تعامل صاحبنا لرايت الذباب يضخم ويعظم ويثقل، ويلج ويسرف فى الاحاح ، ويستغل ما يسر له من الاسباب حتى يبلغ من ضخامة الجسم وفخامته ومن ارتفاع الطنين واتساعه ما يملأ الحياة هولا ووعا . ولكن الذباب لا يجد ما يحميه كما يجد صاحبنا وامثاله ما يحميهم . فهم يسعدون بشقائنا وينعمون بآسائنا ويحققون من الآمال والمآرب ما لا يستطيع الذباب المسكين ان يحقق . وانظرى ياسيدتى لقد انتهى بى الامر الى ان ارحم الذباب واشفق عليه وارثى له حين أوازن بينه وبين هذا الذباب العاطق ، لانه لا يبلغ من حياته البائسة التعسة مثل ما يبلغ الذباب الناطق من حياته السعيدة الناعمة

ولم يكن صاحبنا هذا دائما ضخما فخما كما تربته الآن، وانما كان نجلا ضئيلا لا يكاد يملأ العين، وكان خفيف الحركة شديد النشاط لا يكاد يستقر فى مكان، ولا يخيل الى من رآه ساعيا

مضطربا انه يمشى على الارض وانما يخيل اليه انه يمشى فى الهواء . وقد ظهرت فيه اخلاق الذباب هذه منذ طفولته الاولى فى المدرسة . فلم يكن كغيره من رفاقه يكتفى بهذه الحياة الاجتماعية الحلوة التى يحياها التلاميذ فيلعب مع اترابه حين يلعبون ويفرغ معهم للدرس حين يفرغون للدرس ويستمتع معهم للاساتذة حين يستمعون للاساتذة ، انما كان متهاككا على اترابه واساتذته ما وجد الى هذا التهاك سبيلا ، فان اعياء ذلك تهالك على خدم المدرسة والموظفين الذين يعملون فيها . وقد حسن انظن به اول الامر فقرر الذين كانوا يعيشون من حوله انه عطوف الوف يتودد الى امثاله من الناس سواء اوافقوه فى السن أم خالفوه فيها ، ولكنهم لم يلبثوا ان ضاقوا بهذا العطف واستثقلوا هذا الالف ، وجعلوا يتدافعونه ويلقى بعضهم حملة على بعض ، ثم جعلوا يفرون منه جماعات وأفرادا ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يدفعوه ولم تغن عنهم محاولة الفرار منه شيئا . فهو لم يكن ذبابا غافلا وانما كان ذبابا عاقلا ، والعقل يفتق الحيلة ويحسن التماس الوسائل ويمكن صاحبه من التلطف وحسن التأتى للفسير من الامر . وقد عرف صاحبنا كيف يحتال وكيف يبتغى الوسيلة الى الاتراب والى الاساتذة ، واذا هم يشقون به ويصبرون على احتمائه ويبدلون له من ذات انفسهم ومن ذات ابدانهم ما يستطيعون ليتخففوا منه ، وليخلصوا من الحاحه البغيض وقد أدرك بعقله النافذ وحيلته الواسعة ضعف الاتراب والاساتذة فلم يزد ذلك الانتبعا لهم والاحاحا عليهم حتى اخافهم من نفسه وتسلط عليهم بهذا الخوف الذى اشاعه فى النفوس والقلوب

وكذلك أنفق حياته فى المدرسة الابتدائية والثانوية متهاككا لا يكاد يستقل ، مستغفلا لا يكاد ينفع حتى اذا أتم الدراسة الثانوية ، ووجد عملا فى بعض الدواوين تتبع زملاءه ورؤسائه بمثل ما كان يتتبع به

الرفاق والاسانذة من التهالك والالاحاح ، والغريب انه بلغ في الديوان مثل ما بلغ في المدرسة من اكراه الزملاء والرؤساء على أن يقبلوه ويحملوه وينفوه ، يريد بعضهم بذلك أن يتخف من عبء ثقیل ويريد بعضهم بذلك أن يخلص من هم متصل ، وصاحبنا يرى هذا كله ويقدر هذا كله ، ولا يحفل من هذا كله الا لشيء واحد هو أن يتهالك على الزملاء والرؤساء لينتفع ويستفيد . وما يعنيه أن يحبه هذا أو يفضيه ، وما يعنيه أن ينفعه هذا استجابة للخر أو اتقاء للشر .

كل هذه أمور لا تشغله ولا تؤثر في نفسه كل التأثير ، هو أن ينتفع مهما يكن المصدر الذي يأتيه منه النفع ، ومهما تكن البواعث التي تدفع الناس الى أن ينفوه

وقد قلت انه لم يكن ذبابا غافلا وانما كان ذبابا عاقلا ، ويجب أن أقول انه كان ذبابا ذكيا أيضا ، فكان يحسن الانتهاز للفرص والانتفاع من الظروف . ولم يكن - ولا سيما بعد أن تقدمت به السن - يهجم على فريسته كما يهجم الذباب في غير حيلة ولا تلاف ولا احتياط ، وانما كان يدبر أمره تدبرا لطيفا خفيا فيتواضع ويتضاءل حتى يخيل الى الزميل أو الى الرئيس انه الخادم المطيع الذي لا يجب الا أن يكون عندما يريد منه . فهو يسبق الزميل أو الرئيس الى ما يظن أنه يرضيه والى ما يقدر أنه يشره ، ولا تسأل عن نطقه في القول وتظرفه في الحديث وحسن سعيه الى القلوب ، فاذا بلغ من رضى الزميل أو الرئيس ما يريد ، لم يعرف كيف ينصرف عنه ، وانما تهالك وألح في التهالك ثم طلب وألح في الطلب حتى يكره الزميل أو الرئيس على أن يبلفه من الامر ما يريد ، ليخلص من هذا التهالك ويستريح من هذا الالاحاح وتستطيعين يا سيدتي ان تتبعي سيرته في الدواوين فسترينها رائعة حقا وسترينها مؤذية حقا ، وأي غرابة في ان تجمع سيرة

الرجل الواحد بين الروعة والأيذاء، وليست الروعة مقصورة على ما يعجب ويروق ولكنها أيضا تكون فيما يؤذى ويسوء وقد عرف صاحبنا من خصال الرؤساء في الدواوين أيام شبابه الاول ميلهم الى أن يتبعوا اخبار المرؤوسين ويستقصوا اسرارهم ويستكشفوا سرائرهم، فاحسن انتهاز الفرصة السانحة والانتفاع بالظروف المواتية، وأصبح لكل زميل صديقا حميما وخليلا مداخل يظهره من حياته على كل شيء، ووليظهر هو من حياة صديقه وزميله على كل شيء. ولكن زميله كان يعرف من حياته ما يعرف ثم يقف من هذه المعرفة. فاما هو فلم تكن هذه المعرفة عنده الا الخطوة الاولى. فلما الخطوة الثانية فهي التغير والتبديل فيما عرف ثم نقل ذلك الى الرؤساء ليتحفظوا ويحتاطوا لانفسهم ولاعمالهم. وكذلك بلغ صاحبنا من التهاك المتجسس أو من التجسس المتهاك ما كان يريد فارتقى في المناصب والدرجات رقبيا سريعا متصلا، وظفر في كل منصب شغله وفي كل درجة ارتقى اليها بما أراد من ثقة الزملاء، وحب الرؤساء، والغريب انه الى تهالكه وتجسسه والى عقله وذكائه قد أضاف خصلة عظيمة الخطر في حياة أمثاله وهي قوة الذاكرة وسعة الحافظة فلم يكن ينسى شيئا ولم يكن ينسى أحدا، وهو بهذه الخصلة قد استطاع أن يستبقى عهد به جميع الذين عرفهم وعمل معهم في الدواوين المختلفة التي مر بها، وفي المناصب المختلفة التي ارتقى اليها

وقد عرف من سيرته هو ومن تجاربه الخاصة مقدار ما كان يؤدي الى الرؤساء من خدمة بمداخلته للزملاء وتعرفه أخبارهم واسرارهم وتجسسه عليهم. وعرف في الوقت نفسه مقدار ما انتفع به من هذه السيرة. وكان أذكى من رؤسائه وأنفذ منهم بصيرة فقرر فيما بينه وبين نفسه حين واثاه الحظ وأتيح له التسلط أن يتخذ لنفسه الجواسيس الذين يتقنون اليه الاخبار ويظهرونه على الاسرار كما كان هو جاسوسا، ولكن بشرط الا ينفع جواسيسه

كله الله الذين استخدموه . وربما كان مصدر هذه الخطه
التي اتخذها لنفسه أنه كان أثرا يرى أن النفع يجب
أن يكون مقصورا عليه لا يتجاوز له الى غيره ، وربما كان مصدر هذه
الخطه انه كان معتدا بنفسه يرى أن واحدا لن يحسن التجسس
كما كان هو يحسن التجسس للرؤساء ، وربما كان مصدر هذه
الخطه انه كان يرى أن التجسس خصله وصيعة لا يستحق اصحابها
مكافاة ولا حياة ، لا أن تقترب براعة ممتازة كبراعته وذكاء متفوق
كذكائه وشخصية نادرة كشخصيته ، والا أن يكون الغرض منها هو
تمكين هذه البراعة الممتازة والذكاء المتفوق والشخصية النادرة من
أن تؤتي ثمراتها فترقى بهذا الانسان الفذ الى حيث ينبغي له
من النجاح والتفوق والامتياز وليس هذا الانسان الفذ الاشخصه
الذي عرف كيف يذل العقاب ، ويقهر الصعاب ، وينفذ من الخطوب
ويبعث بهذه العقول الكثيرة التي عث بها منذ كان تلميذا صبياني
المدرسة الابتدائية ، الى أن أصبح موظفا كبيرا يأمر فلا يخالف عن
أمره أحد وبنهى فلا يتجاوز حدود نهيه أحد ، وربما كان مصدر
هذه الخطه كل هذه الأمور مجتمعة والشيء الذي ليس فيه شك هو
أن يزدري التجسس والمتجسسين أشد الازدراء ، ويستقل
التجسس والمتجسسين أشد الاستقلال ، وينظر الى الحياة
والاحياء نظرة غامضة تدل على النبوغ الذي لاشك فيه لانها
تصور خصلتين اثنتين لا توجدان الا في نفوس النوابغ والافذاذ ،
الاولى ايمانه بنفسه الى غير حد ، والثانية احتقاره لغيره الى غير حد .
واذا اجتمعت هاتان الخصلتان في نفس رجل واحد كان خليقا
أن يرى نفسه غاية الغايات وغرض الاغراض ، وأن يقتنع بأن العالم
لم يخلق الا له . ولم يوقف الاعليه وأن ينتهي به الامر الى غرور
بغيف

قالت السيدة وكانت أديبة أريية صدق الله العظيم « يا أيها
الناس ضرب مثل فاستمعوا له أن الذين تدعون من دون الله لن
يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وأن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه
منه ضعف الطالب والمطلوب »



كتب قيمة بقروش زهيدة

صدر منها حتى الآن :

- ١ - آبار في الصحراء - مجموعة قصص مصرية للاستاذ محمود كامل المحامى
- ٢ - الضاحك الباكي - احاديث عن الثورة المصرية لفكرى اباطة باشا
- ٣ - الف ليلة الجديدة - اخراج جديد لهذا القصص الفريد للاستاذ عبد الرحمن الخميسى
- ٤ - نساء من خرف - مجموعة من القصص المصرية للاستاذ سعد مكاوى
- ٥ - صندوق الدنيا - صور فكهة لفقيد الادب الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

- ٦ - **فرعون الصغير** - مجموعة قصص مصرية طلية للاستاذ
محمود تيمور بك
- ٧ - **الشرق والغرب** - مجموعة وصول طريفة للدكتور محمد عوض
محمد بك
- ٨ - **قضايا الحب** - مجموعة من اغرب وامتع القضايا للاستاذ
فائق الجوهري المحامى
- ٩ - **جيشنا في فلسطين** - تسجيل تاريخى لمعارك الجيش
المصرى فى حملته لانتقاذ فلسطين من الازهاب الصهيونى
للصاغ السيد قرج
- ١٠ - **الف ليلة الجديدة** - المجموعة الثانية للاستاذ عبد
الرحمن الخميسى
- ١١ - **فى المرأة** - مختار المرايا فى السياسة الاسبوعية لفقيد
الادب الشيخ عبدالعزيز البشرى
- ١٢ - **غاديات رائحات** - مجموعة قصص مصرية للاستاذ
محمود طاهر حقى
- ١٣ - **صانع الحب** - مجموعة من القصص الواقعية للاستاذ
احسان عبد القدوس
- ١٤ - **دموع وضحكات** - مجموعة قصص واقعية للاستاذ
عباس حافظ
- ١٥ - **عندما تحب المرأة** - مجموعة قصص مصرية للاستاذ
حلمى مراد
- ١٦ - **حاجى بابا الاصفهانى** - عن جيمس موريه للاستاذ
مرسى الشافعى
- ١٧ - **جرائم ومرافعات** - مجموعة من اشهر القضايا للاستاذ
يوسف حلمى

- ١٨ - الطريق الى الشهادة - عن الفيلسوف الامريكى
لنك للصاغ ثروت محمود
- ١٩ - موعد فى الجنة - قصص واقعية عن الابطال الذين
استشهدوا فى فلسطين للاستاذ حلمى سلام
- ٢٠ - نجيب الريحاني - دراسة وافية دقيقة للاستاذ عثمان
الغنتبلى
- ٢١ - صور من الريف - صورة صادقة لحياة الريف بما
فيه من نعيم وشقاء ، ومسررات واحزان للاستاذ زكى
عبد القادر
- ٢٢ - الحب فى التاريخ - اشهر قصص الحب التاريخية
للاستاذ سلامة موسى
- ٢٣ - عشرة ايام فى السودان - لىعالى الدكتور محمد حسين
هيكلى ياشا
- ٢٤ - وراء القضبان - لرعيم حزب مصر الاشتراكى الاستاذ
احمد حسين
- ٢٥ - مارد من الشرق - صور من الهند للاستاذ احمد قاسم
جوده مع فصول للاستاذ محمود ابو الفتوح صاحب المصرى
- ٢٦ - خبايا سياسية - فصول طريفة عن اسرار السياسة
المصرية بقلم الدكتور محمود عزمى

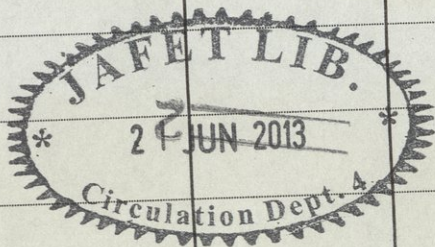
تمن كل نسخة من هذه الكتب

٥ قروش

تطلب من شركة التوزيع المصرية ٨ شارع ضريح سعد بالقاهرة



DATE DUE



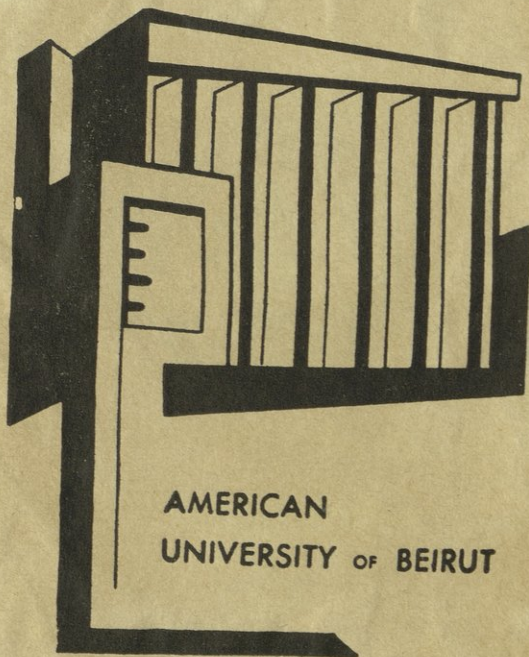
حسين، طه

جنة الحيوان

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01037867



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

892.78

Ha3924^ojnA

C.I